

كامل زهيرى
النيل فى خطر!
وثائق تنشر لأول مرة
مشروعات تحويل مياه النيل من هرتزل إلى بيجن
أسرار الأطماع الصهيونية فى مياه النيل
(١٩٠٣ / ١٩٨٠)
العربى للنشر والتوزيع

كامل زهيري

النيل في خطر

مشروعات تحويل مياه النيل
من هرتزل إلى بيجن (١٩٠٣ - ١٩٨٠)

هذا الكتاب إهداء من
مكتبة يوسف درويش

الطبعة الأولى

العربي للنشر والتوزيع

٦٠ شارع القصر العيني — امام روز اليوسف — القاهرة
تليفون : ٢٧٥٦٦ — [illegible]٧٤٨٢

مقــدمة

عزيزى القارىء ..

هذا كتاب جديد موصول بكتاب قديم .

فقد نشرت منذ عامين كتاب « مزاعم بيجن ، الرد عليها بالوثائق » .
جمعت فيه ما كتبته خــلال شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٩٧٧ ، فى بــاب
« من ثقب الباب » بجريدة الجمهورية ، افند فيه بعض الاكاذيب التى
روجهــا رئيس وزراء اسرائيل مناحم بيجن ، فى تصريحــات عديدة عبر
الاذاعات والتليفزيون والصحف .

واقتضت خطورة تلك الاكاذيب المتعمدة ، وفداحة أخطارها ان أضيف
فى كتابى أبحاثا مطولة ، عمدت فيهــا الى الاستناد على الوثائق التاريخية
الثابتة ، أو المصــادر الصهيونية لتفنيد تلك المزاعم .

وقد تركزت تلك المزاعم « البيجنية » حول محاور ثلاثة :

المحور الاول : ذلك القول أن وعد بلفور عام ١٩١٧ ، قد أعطى
اليهود كل الحق فى كل فلسطين .

وأى دارس لتاريخ الحركة الصهيونية ، ونفوذها على الســياسة
البريطانية ، يدرك أن ذلك الوعد المشئوم قد اتخذ عدة محاولات ومشاريع
فى المؤتمرات الصهيونية نفسها . كما عرض على الحــكومة البريطانية

عام ١٩١٧ بصور متعددة تلاحقت عليهـــا التعديلات . ولم تعـــد تفاصيل ذلك سرا مكتوما كما شاعت الصهيونية والدوائر الاستعمارية التى كانت تحتل عام ١٩١٧ أغلب الوطن العربى ، وتتحكم فى اخباره واسراره . بل أصبح السر الآن شائعا يستطيع الحصـــول عليـــه اى قارىء مدقـــق او دارس نزيه للتاريخ الحديث .

والمحور الثانى : تلفيق وتشويه تاريخ العلاقات العربية اليهودية ، وذلك بتصوير اتفاقية فيصل ــ وايزمان عام ١٩١٩ ، على غير حقيقتها .

وقد اختلف المؤرخون العرب حول حقيقة هذه الاتفاقية أو تفسيرها . ما بين متحامل بعنف على فيصل وسيرته ، وبين مدافع على هون عنه .

ومهما يكن الموقف ، فقـــد اقتضى الانصـــاف تبديد الزعم الذى روجه قصدا مناحم بيجن ، حين اجتزأ بعض فقرات من اتفاقية فيصل ــ وايزمان، وأغفد بقيتها ، مما تناقض حتى مـــع المصـــادر الصهيونية ، بل ومذكرات حايم وايزمان نفسه . واقتضى ذلك الزعم الثانى ، أن أخصص فصـــلا آخر فى كتابى « مزاعم بيجن » ، أضيفه عن « حقيقة اتفاقية فيصل ــ وايزمان » حتى تنكشف كل الحقيقة .

أما المحور الثالث : فهو التمسك بتلك الفرية الدعائية حول حقيقة حرب يونيو ٦٧ ، وهو ما نسجته الدعاية الصهيونية ، وروجته فى العالم ، وأكدته أبحاث أغلب فقهاء القانون الدولى الصهيونيين .

وقد ظل بيجن بفريته يروجهـــا ــ من خـــلال الاذاعات والصحف ــ بأن حرب يونيو كانت دفاعية من الجانب الاسرائيلى ، ومن ثم مشروعة تماما . والغريب أن عام ١٩٧٢ ، وبعـــد خمس أعوام من حرب يونيو ، شهد أيام جولدا مائير بدايـــة ازاحة الســـتار عن حقيقة تلك الحرب ، على لسان بعض جنرالات اسرائيل . ثم جاءت مذكـــرات ابا ايـــان ، وزير خارجية اسرائيل فى وقتهـــا ، ومذكرات ليندون جونسون الرئيس

الامريكى أثناءها ، وجـــاء عدد وفير من الكتب الصهيونية ، ليكشف دقائق الاعداد لتلك الحرب من الجانب الاسرائيلى ، وأسرار مناقشات الوزارة الاسرائيلية منذ أزمة مايو ١٩٦٧ ، فأكدت تلك المواقف المعروفة من قبـــل ، مما فرض على العودة أيضـــا الى كل المراجـــع العربيـــة التى ظهرت عن حرب يونيو ، ومنهـــا ما ظهر حتى قبـــل أن يصبح مناحم بيجن ، رئيسا لوزراء اسرائيل ، واذا بكل تلك المراجـــع — على اختـــــلاف منظورها أو مراميها ، تكذب ذلك الزعم البيجينى .

وليس عسيرا بعد ذلك أن ندرك أن مزاعم بيجن حول حرب يونيو ليست مجرد تصوير لأحداث الحرب ، بقـــدر ما تدفعهـــا رغبة دعائيـــة خطيرة ، لأن القول بالحرب الدفاعيـــة ، تعنى انهـــا نوع من الدفـــاع الشرعى ، ونتيجة هذه المقـــدمة — منطقيا — أن تصبح اسرائيل غير ملزمة حتى بتنفيذ القرار ٢٤٢ بشأن الجلاء عن كل الاراضى العربيـــة المحتلة فى يونيو ١٩٦٧ ، وهى كامل سيناء والقدس والضفة الغربيـــة وقطـــاع غزة والجولان .

وهو تصوير وتفسير يتناقضان تماما مع قرارات الامم المتحدة — خلال أكثر من عشر سنوات،بل يهددان اية محاولة مخلصة — عالمية أو محلية — لاقامة سلام شامل ودائم .

واذا كان كتـــاب « مزاعم بيجن » قـــد ألقى الضـــــوء — فى حينـــــه — على تلك الآراء التى يتمســـك بهـــا زعمـــاء الحــــركة الصهيونية ، وعلى رأسهم مناحم بيجن ، فان هذا الكتاب الجديد يتصـــل اليوم بالكتاب القديم ، لأنه يحـــاول كشف وتفنيد مشروع صهيونى خطير ، هو « مشروع شراء مياه النيل وتحويلها الى النقب » ، وقد ظهر فى الصحف الصهيونية منذ عام ١٩٧٤ ، وعاد الآن يدق الاسماع بعنف شديد .

بل قد يكون الكتاب الجديد اخطر ، لانه لا يتعلـــق بتصحيح حقائق التاريخ ، بل يتعلق بالخطر على المستقبل . وقد عكفت على هذا البحث الجديد « النيل فى خطر » ، الذى حاولت فيه أن يكون مباشرا وبســـيطا

ومختصرا — حتى يؤدى رسالته ، لأنه يتوجه الى كل وطنى ووطنية والى الرأى العام بالدرجة الاولى .

وقد عالجت فى البحث جذور الاطماع الصهيونية فى مياه النيل منذ عام ١٩٠٣ ، أيام اللورد كرومر ، وسعيت الى الاعتماد على الوثائق السرية ، والمراجع المهجورة — عن عمد أو جهل — حتى أبين أخطار المشروع الصهيونى الجديد — منذ ١٩٧٤ — الذى أن تعدلت صورته ، فلم تتعدل مقاصده ومراميه .

واذا كان هذا البحث الجديد قد اعتمد أيضا على الحقائق والوثائق، فلابد أن أعترف — للقارىء — اننى عانيت خلال كتابته كثيرا .

ولم يكن مرجع هذا العناء عقليا . ولم يكن سببه هو قلة المعلومات. فلقد اندفعت الى الكتابة خلال شهر سبتمبر ٧٩ ، وكدت أفرغ منه تماما فى وقت وجيز بالنسبة لما يحتاجه أى بحث . وقد ترجع السرعة اننى كنت قرأت مراجع صهيونية وتاريخية عديدة . ولم تحتج عودتى اليها الى جهاد عقلى بقدر المعاناة النفسية ، وخاصة اننى منذ سنوات أعمد الى تلخيص اغلب ما أقرأ حتى أعود اليه حين ابغى .

.. لم يكن العناء عقليا . بل كان نفسيا .

لأننى وددت دائما أن أتحدث الى عقل القارىء ، وأن أضع عاطفتى جانبا .

ولهذا كتبت . وعمدت الى الصمت وقتا . فلم استطع عليه صبرا .

بل لابد أن أعترف أن الهواجس هجمت على حتى ظننت ان النجاة بقلبى وقلمى فى هجرة القلم .. وظننت أن الحل هو عودتى الى الهجرة الى

المحاماة التى كنت قد اشتغلت بهـا فى الخمسينات . وأخذت أهون الأمر على نفسى قائلا أن العـلاقة حميمة بين الكتابة والمحاماة . وأن البـون بينهما ليس بالكبير . فكلاهما — من خبرتى وفى ظنى — يقومان على روح الاستقلال العقلى ، وعاطفة العـدل ، والسعى وراء الانصاف . والمحاماة والكتابة يتفقان معا فى البحث الملح عن العـدل ، وان كانت المحـاماة فى ظنى هى البحث عن العدل الأصغر ، والكتابة فى النهـاية ، هى البحث عن عدل أكبر أو أكثر .

فالبحث عن اقرار حق من حقوق المواطن فى قضية بين شخصين حول حق أو حرية هو بحث يستحق العنـاء والعنـاية . والبحث عن تأكيد حق من حقوق الوطن فى قضية عامة تتصل بالحريات أو حقوق الانسان دفـاع عن العدل الأكبر أو الأكثر ، وهو بحث لا يكفيه العنـاء بل يفرض المعـاناة .

وما أعظم البحث فى الحالين عن العدل للوطن أو الانصاف للمواطن !

وقد حسبت أول الأمر أننى مستطيع رغم ذلك ان أحبس قلبى وراء عقلى ، وعقلى وراء قلمى . ولكنى لم أستطع .

وكيف لى والنيل يبدو لى فى خطر .

وكيف لى ، وأنا بالذات قاهرى المولد والمزاج . ولدت على ضفة النيل بالجيزة . وعشـت دائما عاشقا لحضارة الأنهـار ، وتجولت ما بين السند والفرات والسين والنيل ، وطوحت بى الاسفار بين الأنهار ، فلم أجد فى النهـاية ما يعدل متعة النظر الى فيض فضى ، قادم من الجنوب ، مهاجر الى الشـمال ، متجدد دائما . خالد ابدا .

وكيف لى ، وقد أنعم الله على بنعمة الذاكرة البصرية ، لا أكاد أنسى ما أرى ، تدربت عيناى على الألوان ، وتخلصت من أميـة العين ،

فأصبحت ادرك معنى اللون الخفيف والكابى والشفاف والصافى ، والنيل معلم مجانى للعين والروح فى فنون الألوان والضوء والظلال .

وكيف لى وقد انعم الله على بنعمة السمع ، فأصبحت أحس وقع اللفظ ودبيبه بأذنى ، وادرك الصلة بين المبنى والمعنى ، والصلة بين الماء والنماء ، والمياه والحياة !

وكيف لى الصمت وفى قلبى من قديم هذا الصوت الروحى من أن الماء أصل الحياة وبركتها ، وفى الكتب المقدسة تقديس للطهر والماء . بل وقد ذهب أقدم القدامى الى تقديس النيل ، بأسماكه وتماسيحه ! ونسجوا حوله الأساطير القديمة والحديثة حتى ارتقى بنا الحس الدينى ؛ وأصبح الماء الجارى هو الذى يعد الانسان للقاء الله فى الصلاة !

وكيف لى ، وانا الذى تدرجت فى الدرس ، وتسلقت قمم المعانى ، وسقطت فى آبار الكلمات ، وتدحرجت بين السطور ، واحتميت بانحناءات الحروف ، وعلى قدر ما قرأت واستوعبت وتتلمذت ، لم أجد قبل النيل استاذا .

فمصر من دون النيل تصبح قاحلة وقحطا . وغيرها من دول النيل تعيش على الرى بالمطر والنهر ، ومصر تعيش على النهر فقط . والنيل بفيضه نعمة وفى غيضه نقمة . وهو يحتاج الى تنظيم وتخطيط وترتيب وتنسيق وحفر وحرث وزرع . ومن هنا كانت الدولة ضرورة وفرضا . اذا انتظمت واستقامت واعتدلت كانت نعمة ونظاما ، واذا غالت ومالت كانت نقمة وظلما وظلاما .

وكيف لى السكوت بعد ذلك ، والنيل — من آلاف السنين — أول درس فى التاريخ لوقف الفيضان الخطير أو القحط العجاف ، ولست هنا اتباهى ، مثل هؤلاء الذين يعلقون أوسمة وهمية مظهرية على صدر شحاذ ،

بل مرجع الفخر هو درس التاريخ العميق فى مصر . لأن مصر ليست فقط التى عرفت أول دولة فى التاريخ ، ولكنها أيضا أول أرض احتاجت الى العمل والعلم . ورواها الى جانب النيل عرق الانسان .

ان مصر هى أقدم أرض فى الكون عرفت عرق الانسان . وهذا هو المغزى العميق لهذا الشرف الوطنى الذى ينتقل من جيل الى جيل ، وهو ما يجعلنى أختار عنوان هذا الكتاب « النيل فى خطر » .

كامل زهيرى

الفصل الأول

أصول مشروع تحــويل

مياه النيل الى ســـيناء

وثائق تنشر لاول مرة . أصول فكرة توطين اليهود فى سيناء . مشروع هرتزل ١٩٠٣ أيام الملكة مكتوريا واللورد كرومر وبطرس باشا غالى . المراجع البريطانية والعربية كلها اغفلت ذكر هذه المحاولة . أسباب السرية المطلقة . دزرائيلى وراء مشروع اقامة اسرائيل،وشراء أسهم قناة السويس .دزرائيلى ومجنون ليلى . محمد على يرفض قرضا بـــ ٤ ملايين جنيه من آل روتشيلد . هرتزل تاثر بأفكار هيس وبنسكر . ويقنع روتشيلد ودى هيرش بالاتجاه شرقا بدلا من الارجنتين . ميلاد فكرة الهجرة الجماعية المنظمة فى المشرق العربى . مصر أولا .

لا يملك الانسان سوى الذهول من أن تظهر بغتة على صفحات الجرائد تلميحات لوعود بمشروع خطير ، لو صحت حكايته لكان كارثة وطنية تهـدد مصر وحياتها ، بل ومستقبلها لاجيال قادمة .

ونعنى بهذا الوعد ، أو المشروع تحويل جزء من مياه النيل الى صحـراء النقب عبر سيناء .

وما يثير الذهول والاسى أن مشروع تحويل مياه النيل الى سيناء هو فكرة قديمة ظهرت فى مطلع القرن العشرين ، تقدم بها الزعيم الصهيونى تيودور هرتزل عام ١٩٠٣ الى الحكومة البريطانية فى عهد الملكة فكتوريا واللورد سالسبورى وجوزيف تشمبر لين ، وارثر بلفور والى الحكومة المصرية فى عهد الخديو عباس الثانى ، ومصطفى باشا فهمى ، وبطرس باشا غالى والمعتمـد البريطانى اللورد كرومر . وقد بذل هرتزل لتحقيق المشروع نشاطا ، وأظهر دهاء لتوطين اليهود فى شبه جزيرة سيناء كنقطة للوثوب على فلسطين .

والعجيب أن تبعث هذه الفكرة القديمة من جديد ، وبعد اكثر من ستة وسبعين عاما فيجرى الحديث بها هذه الايام « وان كان سرا وتلميحا » عن تحويل مياه النيل الى صحراء النقب فى فلسطين المحتلة عبر شبه جزيرة سيناء . وهو مشروع — أن صح العزم عليه — فيه تفريط شنيع فى هبـة النيل لمصر — بل سيجعل مصر — فى النهاية — للنيل بعد أن كان النيل لمصر . وكأننا نبدأ صفحة جديدة سوداء من النفوذ الاستعمارى تشبه تلك الصفحـة التى جعلت « مصر للقناة » قرابة قرن من الزمان ، بدلا من أن تكون « القناة لمصر » .

ومثل هذا البحث الذى نقدمه حول الاصول التاريخية لمشروع تحويل مياه النيل الى سيناء عبر قناة السويس عام ١٩٠٣ ، وحول المشروع الجديد لتحويل مياه النيل الى النقب يفرض علينا الاستناد الى الوثائق وحدها ، حتى لا يظن أحد بنا التحامل أو الافتراء .

وقد اقتضى هذا البحث الرجوع الى الوثائق ، التى ننشرها لاول مرة بالعربية — ومنها ما يتصل بمشروع توطين اليهود فى سيناء كما جاء فى مذكرات هرتزل نفسه ، اى فى يومياته الكاملة والمنشورة فى نيويورك عام ١٩٦٠ ، اى بعد اكثر من خمسين عاما من نهايتها ، تحت عنوان :

The Compelete Diaries of Theodor HERZL, edited by Rafael Patai, Herzl Press, New York, 1960.

وقد اعتمدنا على مقارنتها بيوميات هرتزل ، المترجمة الى العربيـة عام١٩٦٨، والتى أعدها الدكتور انيس صايغ،وترجمتها هيلدا شعبان‌صايغ، وهى ترجمة دقيقة امينة لمقتطفات متتابعة ومصنفة طبقا للموضوع ، ومختارة من المجلدات الاربع التى تتألف منها اليوميات ، وتقع هذه المختارات فى ٥٤٩ صفحة بالعربية .

والملفت للنظر أن المراجع الانجليزية (١) التى عالجت هذه الفترة من تاريخ مصر قد خلت تماما من الاشارة لهذا المشروع ، ومن أهمها كتاب اللورد كرومر المعتمد البريطانى « مصر الحديثة » فى جزأين مطولين نشرهما اللورد عام ١٩٠٨ بعد استقالته . كما خلت أغلب الكتاب التى الفها بعض كبار الموظفين البريطانيين ، والذين عملوا فى خدمة الحكومة المصرية فى هـذه الفترة ، مثل كتاب سير رونالد ستورز«شرقيات»(٢)، وهو الذى لعب دورا ضخما مع لورنس ، وكان سكرتيرا لكتشنر ثم حاكما عسكريا للقدس. اى عاصر صدور وعد بلفور . وكذلك كتاب سير توماس راسيل « فى الخدمة المصرية من ١٩٠٢الى ١٩٤٦»(٣) ، وكتاب الفريد ملنر « انجلترا فى مصر»(٤).

والملفت للنظر أن المراجع العربية »(٥) على كثرتها — قد أصيبت أيضا بفجوات ، فلم تشرفى حينها ، أو بعد ذلك ، لمشروع توطين اليهود فى سيناء، وتحويل المياه اليها عام ١٩٠٣ ، على الرغم من اهتمامها بحادث لاحـق هـو حادث طابه عام ١٩٠٦ ، وهو الحادث الذى كشف نزاعا حادا على حدود مصر الدولية أيام الخديو عباس حلمى الثانى ، وكان من ورائه مشروع مد سكة حديد الحجاز الى العقبة ، وتغلغل النفوذ الالمانى فى الاستانة ، والصراع الالمانى البريطانى .

فهل ترجع تلك الفجوات فى كتابة تاريخ مصر . الى استخفاف المؤرخين المصريين بمتابعة أخطار التغلغل الصهيونى منذ محاولات هدم الاستقـلال المصرى فى منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ وقعت قناة السويس بين براثن الانجليز وروتشيلد فى عهد اسماعيل ، أم أن اهتمامهم كان قد انصرف فى الاغلب الى الاحداث السياسية المتصلة بالاستقلال والدستور ، دون الاهتمام بالنشاط الاقتصادى والمالى ، أم أن ذلك يرجع فى النهاية الى أن المشروع الصهيونى عام ١٩٠٣ بتوطين اليهود فى سيناء وتحويل مياة النيل قد أحيط بسرية كاملة من المنظمة الصهيونية ومن الحكومة البريطانية ومن المعتمد البريطانى ورجاله ؟

وقد يكون هذا السبب الاخير هو السبب الرئيسى ، لآن مذكرات هرتزل كشفت — بعد نشرها عام ١٩٦٠ — أنه فرض على رجال البعثة الصهيونية التى وصلت مصر عام ١٩٠٣ أن يقسموا بعدم افشاء أى سر أو الادلاء بأيـة تصريحات صحفية أو نشر مذكرات أو حتى مجرد الاشارة العابرة الىالمشروع. وقد وضع هرتزل بنفسه صيغة القسم كما استلزم أن يوقع عليه أعضاء البعثة كتابة . وقد استمرت اتفاقية الجنتلمان بفرض السرية المطلقة علـى المشاريع الصهيونية بين الحكومات البريطانية المتعاقبة والحركة الصهيونية، حتى بعد وفاة هرتزل ، واختفاء سالسبورى وجوزيف تشمبرلين وكرومـر لاننا نجد نفس السرية(٦) قد فرضت من سلطة الاحتلال البريطانى على مصر، حين ارسلت الخارجية البريطانية التعليمات السرية بفرض الرقابة على الصحف المصرية خوفا من تسرب أية معلومات عن وعد بلفور عام ١٩١٧ .

وثيقتان خطيرتان

وقد استندنا فى البحث عن مشروع توطين اليهود فى سيناء وتحويـل مياه النيل الى شبه الجزيرة على وثيقتين هامتين ، ننقلهما حرفيا الى العربية، لاول مرة ، وهما :

١ — الوثيقة الاولى :

نص مشروع الامتياز الذى كان قد أعده هرتزل عام ١٩٠٣ لعرضه على الحكومة المصرية أى على المعتمد البريطانى اللورد كرومر ، وبطرس باشـا

غالى بالتحديد ، والمسئولين البريطانيين فى وزارة الحقانية المصرية ، وذلك بعد نجاح مساعيه الاولية بقبول المشروع مبدئيا فى لندن مع جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات .

وخطورة هذه الوثيقة ، أنها تكشف عن الحجم المروع لاطماع الصهيونية فى سيناء منذ مطلع القرن ، وتصحح ماشاع حول المشروع ، وأشتهر بين المؤرخين المدققين على قلتهم من أنه كان مجرد مشروع لتوطين اليهود « فى العريش » ويكشف نص مشروع الامتياز أن المنظمة الصهيونية التى مثلها هرتزل ، كانت ترمى الى خطف امتياز التوطن وانشاء الموانىء والفنارات الشرقية للقناة وخليج السويس حتى حدود مصر وفلسطين (أى الحدود المنصوص عليها فى فرمان تولية محمد على المعروفة بالحدود الدولية) ومن البحر الابيض شمالا ، حتى خط عرض ٢٩ جنوبا ، أى الخط الذى يمتد من أبى زنيمة على خليج السويس متجها شرقا حتى الحدود .

٢ — الوثيقة الثانية :

نص تقرير البعثة الفنية التى أرسلتها الحكومة البريطانية ، خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٠٣ ، وزارت سيناء ، بالاتفاق بين هرتزل وجوزيف تشمبرلين واللورد كرومر وبطرس باشا غالى .

ولا تكشف خطورة هذه الوثيقة الثانية عن أطماع الصهيونية فقط ، بل تكشف أيضا أن هذه البعثة التى اختارها هرتزل كانت تتكون من زعماء الحركة الصهيونية فى فينا ، وجنوب أفريقيا ، ولندن والارجنتين ، ولم تكن مجرد بعثة فنية من مهندسين وعسكريين للبحث فى امكانيات توطن الاوروبيين « فى سيناء » . واذا كانت هاتان الوثيقتان تكشفان بالقطع حجم مخططات الصهيونية منذ مطلع القرن ، ومدى أطماعها فى سيناء ومياه النيل ، فقد استلزم البحث بعد ذلك الصعود الى ما وراء المشروع نفسه ، ونعقب الارتباطات بين هرتزل وشخصيتين معاصرتين صهيونيتين — من أصحاب الملايين ، وهما البارون موريس دى هيرش ، والبارون دى روتشيلد .

وليس الهدف هو مجرد الكشف عن الصلات الوثيقة والمريبة بين الفكرة الصهيونية وبيوت المال اليهودية التى تملكت نواصى الامور فى أوروبا

من فرانكفورت وميونيخ وبروكسل الى باريس وجنيف، وتغلغلت فى الامبراطورية العثمانية وممتلكاتها فى البلقان ، وفى مصر منذ هزيمة محمد على ، وخلال عهدى سعيد واسماعيل بل الهدف الاهم هو بيان هذا الخطر الذى استمر بعد وفاة هرتزل ، لأن البارون موريس دى هيرش كان الممول الاكبر لتوطين اليهود فى الارجنتين والبارون دى روتشيلد كان الممول الاول لتوطين اليهود فى فلسطين ، ثم ادمجت عام ١٩٢٢ مؤسستا روتشيلد وهيرش تحت اسم « بيكو » اختصارا لاسم « جمعية الاستيطان اليهودى فى فلسطين »، وقد بلغ مجموع ما امتلكته هذه المؤسسة الموحدة خلال ربع وقرن من ١٩٢٢ الى ١٩٤٨ ما مساحته ٤٥ الف دونم ، أى ثلث ما كان يحوزه اليهود من اراضى عند اعلان قيام اسرائيل .

وانها لصفحات مجهولة حقا ، أو مطوية قصدا ، فى تاريخ ما نسميه دبلوماسية البنوك التى استطاعت اقراض السلاطين والخديويين ومن ثم اخضاعهم ولا يزال هذا الدور الهائل فى أغلبه سرا فى الخفاء ، اما لبخل أصحاب البنوك الكبرى فى كتابة سيرهم ، أو لان كبرى الصفقات المالية تفرض الكتمان وضرب الحصار المطبق من السرية المطلقة .

واذا كانت مصارف روتشيلد واوبنهايم قصفت بمدافعها المالية اقتصاد مصر كما لعب دزرائيلى دورا هاما فى عهد الملكة فكتوريا فى شراء أسهم قناة السويس عن طريق المليونير روتشيلد ، ومهد ذلك لسلسلة من الصفقات والمؤامرات لهدم استقلال مصر ، فان مدافع البارون دى هيرش الذى كانوا يطلقون عليه دى هيرش « التركى » قد لعبت دورا هاما فى الفوز بصفقات هائلة عند مد سكة حديد البلقان (فى تركيا الاوروبية) ولعبت دورا هاما فى الدين العام العثمانى ، وكان كل ذلك تمهيدا لتمزيق وانهيار الامبراطورية العثمانية سياسيا واقتصاديا قبل انهيارها عسكريا .

من هــو هرتزل ؟

وطبيعى أن القارىء يلم حتما باطراف من حياة تيودور هرتزل . ولا شك أنه يعرف كذلك اطرافا من الدعوة الصهيونية الى هجرة اليهود من شرقى اوروبا ، بالدرجة الاولى، الى الارجنتين أو قبرص أو أوغندة وشرقى أفريقيا، أو سيناء ، تمهيدا للانتقال الى فلسطين .

ولم يكن هرتزل هو أول داعية لانشاء الدولة اليهودية فى فلسطين. فالفكرة قديمة .

ويؤكد بعض المؤرخين انها تعود الى ايام كرومويل ، وانها كما قال أبا ايبان فى كتابه « شعبى » «تاريخ الشعب اليهودى » فى الطبعة الفرنسية الصادر عام ١٩٦٩ ، جاءت أيضا كوعد على لسان نابليون بونابرت أثناء حملته العسكرية على سوريا ، حتى يستنهض معونة اليهود فى فلسطين والعالم لاحتلال سوريا بعد احتلال مصر . ويقول ليونارد شتاين فى كتابه « الصهيونية » المنشور عام ١٩٣٢ ، بالفرنسية أيضا أن نابليون دعا يهود آسيا وافريقيا للاصطفاف خلف رايته « لاعادة القدس القديمة » ، ويقول أيضا أن هذا الوعد قد ظهر فى جريدة بونابرت المونيتير يونيفرسيل ، وقد نقله سوكولوف أحد مؤرخى الصهيونية الثقاة فى تاريخه عن الصهيونية ، وقد نشر فى لندن عام ١٩١٩ (المجلد الثانى ، ص ٢٣٠) .

وقد ظهرت الفكرة من جديد — على ما يرى أبا ايبان نفسه — على لسان بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ، فى أغسطس سنة ١٨٤٠ ، حين أرسل الى سفيره فى الاستانة ، بونسوبنى ، ما نصه :

« أن اليهود المشتتين فى أنحاء أوروبا يعتقدون أن الوقت يدنو لبعث حتهم فى فلسطين وبالتالى فان فلسطين تستطيع الافادة من هجرة مكثفة وواضح أن السلطان (العثمانى) سيهتم بتشجيع عودة اليهود » .

ثم نجد الفكرة مرة ثالثة ، تظهر على لسان دزرائيلى ، عام ١٨٧٨ ، حين اتفق مع اللورد سالسبورى على تبنى الفكرة(وسالسبورى هو خال بلفور) وقد تقدم دزرائيلى بنفسه فى مؤتمر برلين (١٣ يوليو ١٩٧٨) — بمذكرة للمؤتمر عنوانها « المسألة الصهيونية فى المسألة الشرقية » وقد نشرتها صحافة فيينا دون اشارة الى اسم صاحبها درزائيلى ، الذى قال فى المذكرة ما نصه :

« الا يجوز لنا أن نفترض انه سيوجد خلال نصف قرن من الزمان شعب يهودى فى هذا البلد وجمهرة كثيفة تناهز مليون نسمة ، تتحدث لغة واحدة ، وتحركها رغبة واحدة فى الاستقلال » (ص ٢٦٤ من كتاب ايبان) .

دزرائيلى ومجنون ليلى

ويهمنا هنا القاء بعض الضوء على ما خفـى من أراء دزرائيلى الذى أصبح يحمل لقب « ايرل اوف بيكونزفيلد » ، وقصة شرائه لاسهم قناة السويس التى كان يملكها الخديو اسماعيل قصة معروفه . ودور روتشيلد فى اقراض بريطانيا معروف أيضا . ولكن قد لا يعرف الكثيرون أن دزرائيلى لم يكن نفسه يهوديا اذ كان أبوه اسحق دزرائيلى يهوديا تنصر ، وقد هاجر من البندقية الى لندن عام ١٧٤٨ واسم دزرائيلى الاصلى هو « دى اسرائيلى » أى الاسرائيلى كما تذكر الانسكلوبيديا البريطانية . (ص ٢٤٦ — ٢٥١ ، المجلد ٣ ، طبعة ١٩٥٦) .

وقد انتقل اسحق دزرائيلى من اليهودية الى النصرانية عام ١٨١٣ ، وانتقل كذلك ابناؤه الثلاثة ، ومنهم الابن الاكبر بنيامين . ومن الثابت ان بنيامين لم يرغب فى العمل بالتجارة كما رغب والده واشتغل بالصحافة وكتابة الروايات والغريب أن احدى رواياته الثلاثة الاولى — ولم تلق جميعها نجاحا أدبيا كبيرا فى لندن — كان عنوانها « مجنون ليلى » (١٧٩٧) وكانت الثانية بعنوان « الرائى »وهى رواية الفها عن دافيد الرائى الذى ظهرفى القرن الثانى عشر . واسمه مناحيم بن سليمان بن الروحى أو الرائى وقد ولد فى اقليم احمدية . وحرض اليهود القاطنين فى اذربيجان على المسلمين ، وتزعم حركة الاستيلاء على فلسطين اثر الصليبيين . ويبدو أنه كان ممسوسا ، فاعلن **العصيان وانتقل الى كردستان** ، ولكن أنصار حميه قتلوه اغتيالا .

وفى التاريخ الصهيونى تقديس لهذا الرجل ، وهم يتبركون به ، بل لقد ظهرت نحلة يهودية عرفتبالمناحميين أو النحمانيين تبركاباسمهوسيرته وما اسم مناحم بيجين الا متصلا به . وقد صوره دزرائيلى فى رواية الحكاية العجيبة للرائى «كمن يمتلك قوة خارقة للطبيعة لاعادة مملكة العبرانيين على أنقاض الخلافة الجديدة فى بغداد » .

ولكن دزرائيلى لم يكن روائيا حالما بل عمل بالصحافة والادب ثم السياسة وقد بدأ حياته برحلة المشرق ، وسافر فيها من أسبانيا الى البانيا،

ثم أثينا والاستانه ، وفلسطين ومصر وانفق فيها ما كسبه من روايتـه « الدوق الشـاب.» وكانت خمسمائة جنيه استرلينى . ولسنا ندرى حتى الآن شيئا عن تفاصيل لقائه مع محمد على . ولكن عادة محمد على كانت لقاء الكتاب والسائحين فى قصره بالقلعة ، ومنهم عدد كبير من فرنسا مثـل جيراردى نرفال ، وانفنتان ، وعدد من السان سيمونيين أصحاب فكـرة شق قناة السويس وقناة بنما .

والاكيد أن محمد على كان فطنا ، فقد رفض فكرة قناة السويس ، خوفا من أطماع الدول الكبرى ، وطلب من السان سيمونيين أن يعكفوا على مشروع بناء القناطر الخيرية لتنظيم الرى ، وزيادة محصول القطن .

وكما كان محمد على فطنا ، كان أيضا حذرا . فقد رفض فكرة القروض الخارجية حين عرض عليه ال روتشيلد قرضا باربعة ملايين جنيه . وفضل على القرض أن يصدر قرارا باحتكار الحرير والتبغ ، ورفع الضرائب علـى الاراضى فى سوريا مما كان سببا فى غضب الاهالى ، ويسجل جبريل انكيرى فى كتابه ابراهيم باشا ١٩٤٨ هذه الواقعة الهامة حين كانت الخزينـة المصرية تعانى من الضائقة بسبب الحرب .

ولكن دزرائيلى عاد من رحلته المشرقية ليكتب روايته التى لم يخف فيها أصله اليهودى مما أثـار عليـه بعضا من أعضاء حزب المحافظين من زملائه

وحياة دزرائيلى نفسها لم تلمع الا بعد موت محمد على ، وقد أصبـح دزرائيلى نائبا عن مقاطعة بكنجهام ، بعد فشل متعدد ومتلاحق فى الانتخابات، وقد استطاع دزرائيلى التقرب — فى أدب وتفان الى قلب الملكة فيكتوريا ، وخاصة بعد وفاة زوجها . وهو الذى اقترح أن يضاف الى لقب فيكتوريا لقب «امبراطورة الهند » عام ١٨٧٦ وهو الذى استطاع أن يحصل من روتشيلد على القروض لشراء ١٧٧٫٠٠٠ سهما من أسهم القناة السويس عام ١٨٧٥ ، واعتبرت فيكتوريا أن هذه الصفقة أكبر خدمة تاريخية اداها دزرائيلى لانجلترا ، فانعمت عليه بلقب اللورد ، وانتقل الى مجلس اللوردات .

وكان دزرائيلى هو مهندس الامبراطورية ، وخاصة فى سياستها تجـاه المشكلة الشرقية فكان من دعاة الحفاظ صوريا على بقاء الامبراطوريـة

العثمانية ، وذلك خوفا من تنازع روسيا القيصرية ، والمانيا البسماركية على املاكها فى المشرق ، وهو الطريق الى الامبراطورية البريطانية فى الهند ومصر وافريقيا .

واذا ما نشبت الحرب التركية الروسية ، عام ١٨٧٨ وانتهت بهزيمة تركيا ، انعقد مؤتمر برلين برئاسة بسمارك « المستشار » الحديدى « وقد حضر دزرائيلى وسالسبورى هذا المؤتمر ، ولم يتخذ قرارا بشأن المذكرة — المسألة الصهيونية فى المسألة الشرقية — ولكن المؤتمر انتهى الى معاهدة برلين التى نصت فى احد بنودها « على التزام ا لباب العالى بعدم التفرقة ضد اى شخص فى تولى الوظائف، او نيله الأوسمة، او ممارسته المهن والصناعات، وعدم التمييز امام القضاء بسبب الدين ، ومساواة جميع الحجاج ورجال الدين فى تركيا الاسيوية وتركيا الاوربية » .

والجدير بالذكر ان مذكرة دزرائيلى حول المسألة الصهيونية لم يكن يسعفها الواقع فى ذلك الوقت — لان عدد اليهود فى فلسطين ، على ما يروى أبا ابيان نفسه — لم يكونوا يزيدون على ٢٠ ألف نسمة ، — وكانوا يتركزون فى القدس ، وصفد وطبرية ،والخليل . وتكشف هذه الوثائع ان الفكرة الصهيونية نفسها لم تكن قد تبلورت ، ويرجع اصلها تارة الى نابليون لاسباب استعمارية ، وتارة الى دزرائيلى لاسباب تختلط فيها الرومانسية بالعاطفة الدينية بالمصالح الاستعمارية ، وبهذا يظهر السؤال : —

— من أين أتى هرتزل بأفكاره ؟ .

وينكر هرتزل فى مذكراته وكتابة « الدولة اليهودية » انه قرأ شيئا مما كتبه سابقوه عن الصهيونية منذ ظهر كتا بموسى هيس «روما والقدس» عام ١٨٦٢ ، أى بعد عامين من ميلاد هرتزل وكان هيس معاصرا للاسال وكارل ماركس وقد تحدث هيس — وهذا أيضا ملفت للنظر — عن مشروع شق قناة السويس ، وانشاء خط سكة حديد الشرق السريع . وفى كتابه امال وتمنيات بان تعاون فرنسا فى اقامة بعض المستعمرات اليهودية التى قد تمتد يوما كما قال فى كتابه « ما بين السويس والقدس وعلى ضفتى الاردن » .

والاكيد أن البعثة السان سيمونية ، صاحبة فكرة شق قناة السويس ، قد وصلت عام ١٨٣٤ فى عهد محمد على ، وغادرتها بعد عامين ، وقد عرف فردنان دى لسبس بالفكرة عند وصول هذه البعثة ، لانه كان فى عهد محمد على نائبا لقنصل فرنسا فى الاسكندرية ، وقد استقبل اعضاء البعثة من خريجى مدرسة البولتكينك الفرنسية ، على ماتروى سوزان فوالكان فى كتابها « يوميات سان سيمونية فى مصر » فى طبعته الوحيدة التى ظهرت بباريس عام ١٨٦٦(١٠) . ولعل هيس قرأ شيئا من مطبوعاتهم بعد عودتهم الى فرنسا ، وقد نشطوا الى الدعوة للفكرة رغم رفض محمد على لها .

وينكر هرتزل أيضا أنه تأثر بكاتب صهيونى آخر هو ليوبنسكر(١٨٢١ــ ١٨٩١) صاحب كتاب « الانعتاقى الذاتى » من جماعة « أحبــاء صهيون » « ومن الذين سبقوا هرتزل الى الاستعانة باموال أصحاب الملايين اليهــود وعلى رأسهم البارون موريس دى هيرش ، لمساعدة اليهود على الاستيطان بالارجنتين .

ولكن مؤرخى الصهيونية ، ومنهم ليونارد شتاين فى كتابه « الصهيونية فى اتجاهاتها وتعاليمها » (لوزان ١٩١٩) ، يقول (ص ٢١) :

ــ كان بنسكر يتحدث عن « النهضة الوطنية » ، بينما كان هيس يتحدث عن فكرة « الدولة » .

وأغلــب الظن أن هرتزل قــرا هــــؤلاء ولكنهـــا واقعـــة غير ذات بال اذ أن هرتزل شق طريقــا خاصا ليس فيه من الفكر العميق شىء ، ولــكن فيــه الكثير من الروح العملية ، والقــدرة على التــأثير والتفاوض ما جعله يقنع هيرش بالعدول عن فكرة الهجرة الى الارجنتين ، والاتجاه شرقا .

وهو بلا شك يتفق مع بنسكر وهيس فى معارضة فكرة الاندماج ، اى انصهار اليهود فى المجتمعات التى يقيمون فيها ، مهما بلغوا من شأن وحتى لو وصلوا الى مراتب الوزراء او تملكوا كبرى البنوك والشركات ، واصبحوا بها ملوكا غير متوجين .

لقد كان خطورة هرتزل فى رفضه القاطع للاندماج ، ورفضه القاطع للهجرة السرية الى فلسطين والهجرة المتوزعة الفردية الى الارجنين ، بــل كانت احلامه أكبر وأخطر .

هوامش الفصل الأول

(١) ومن أهمها كتاب اللورد كرومر

Modern Egypt, Earl of Cromer, 2 vol. Macmillan, London, 1908.

(٢) كتاب سيررونالد ستورز ، شرقيات ، الطبعة الاولى ١٩٣٧ ، الطبعة الثانية والمنقحة ١٩٤٩ ،

Orientations, by Ronald Storrs, Nickobonk Wastson, London.

(٣) كتاب سير توماس راسيل « فى الخدمة المصرية من ١٩٠٢ — ١٩٤٦ » .

Egyptian Service, 1902 — 1946 by Sir Thomas Russel Pasha, Butler, Tanner, 1940.

(٤) كتاب الفريد ملنر ، انجلترا فى مصر

England in Egypt, by Viscount Milner.

الطبعة الرابعة المنقحة حتى أحداث عام ١٩٠٤ ، طبع

Edhard Arnold, London, 1909.

(٥) عالجت كتب عربية كثيرة طابه ، حين احتل الاتراك العثمانيين قرية طابه عام ١٩٠٦ وهى قرية داخل الحدود المصرية ، فى مواجهة ميناء العقبة ، وكان الالمان والعثمانيون يستعدون لمد سكة حديد الحجاز ، وكانت لهذه الواقعة اهمية استراتيجية كبيرة ، لتوغل النفوذ الالمانى فى الامبراطورية العثمانية ، وشمال أفريقيا ، وتأزم الموقف بين اللورد كرومر والسلطان عبد الحميد،واثيرت قضية فرمان تولية عباس حلمى الثانى ١٨٩٣ ، بدعوى أنه لم يشمل كل سيناء، ولكن المواجهة شبه العسكرية بين تركيا وبريطانيا ، وتحرك الجيوش العثمانية الى حيفا والبريطانية الى رودس ، أوصل الازمة الى حافة المواجهة العسكرية . وتخلت فرنسا والمانيا عن مساعدة تركيا ، وانتهت الازمة بتكوين لجنة مشتركة انتهت الى تأكيد حدود مصر الدولية مع فلسطين ، والاعتراف بالحدود الواردة فى فرمان تولية محمد على .

وكان لهذا الحادث اهمية كبرى حتى على مصير الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد .

ومن الملاحظ أن كتب المؤرخ الاستاذ عبد الرحمن الرافعى قد خلت من الاشارة الى مشروع

توطين اليهود فى سيناء على الرغم من تسجيلها الدقيق لاهم الازمات بين مصر وبريطانيا ابتداء من السودان ، الى تعيين الموظفين ، الى أزمة الضباط ، الى حادثة طابه ، ثم دنشواى .

كما خلت أيضا كتب الزعيم مصطفى كامل ، ومنها كتابه (المسألة الشرقية) ، وخلت كذلك أوراق محمد فريد (١٩٠٤ — ١٩١٩) على صراحتها ، راجع المجلد الاول ، طبع مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، سلسلة المذكرات التاريخية ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨ .

(٦) من الوثائق السرية للحكومة البريطانية وثيقة F. 0/311/3054 ارسلت الحكومه البريطانية الى المعتمد البريطانى فى القاهره وينجت برقية بنص وعد بلفور ، مع أوامر صريحة بأنه من المرغوب فيه ممارسة رقابة دقيقة على تعليقات الصحف ، بحيث لا يجب أن تؤذى المشاعر العربية » ، راجع كتاب كامل زهيرى « مزاعم بيجين » ، فصل عن حول حقيقة وعد بلفور ، طبعة ١٩٧٨ .

(٧) كتاب أبا ايبان ، شعبى ، أو تاريخ الشعب اليهودى ، بالفرنسية ، طبعة ١٩٦٩ .
ABBA EBAN, Mon Peuple, Histoire du Peuple Juif, Buchet/Chastel, 1969.

(٨) كتاب
Le Sionisme, ses tendances et son organisation, Dr. S. Bernestein, Lauzanne, 1919.

(٩) يذكر جبريل انكيرى فى كتابه « ابراهيم باشا » (١٩٤٨) ص ٣٠٠ ، ان حرب مصر ضد تركيا ونفقات اعادة تنظيم سوريا ارهقت ميزانية محمد على . وكان يأمل الحصول على قرض من الخارج . وكان لا بد من حصوله على موافقة الباب العالى ، لكنه رفض . وقد أبدى آل روتشيلد استعدادهم لتقديم قرض قيمته ٤ ملايين جنيه ، ولكن الشروط المعروضة لم ترق لمحمد على . ومنذ بداية عام ١٨٣٤ أصبحت الخزانة المصرية فى أزمة مما اضطر محمد على الى الاعتماد على سوريا . فاصدر قرارا باحتكار كل الحرير والتبغ ، وفرض ضرائب مرتفعة على الاراضى والمنازل والمحلات التجارية . وكذلك الجمارك . مما كان سببا فى ضيق الاهالى .
Ibrahim Pacha (1789—1848), Par Gabriel Enkiri, 1948, Préfaec Par Ilhami Hussien Pacha, Impremerie Francaise, Le Caire,

(١٠)

Diplomacy in the Near and Middle East, Vol., 1, A Documentray Record (1535 — 1914), by J. C. Hurewitz, 1956, U.S.A., D. Van Norstad Co.

فى صفحتى ١٧٧و١٧٨ ، نص المذكرة البريطانية للحصول على قرض من آل روتشيلد لشراء اسهم قناة السويس ، وبتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ وفى صفحتى ١٧٨ و ١٧٩ نص الاتفاقية لشراء أسهم القناة ، ٢٥ و ٢٧ نوفمبر ١٨٧٥ ، بين القنصل العام البريطانى فى القاهرة الماجـور جنرال أدوارد ستانسون واسماعيل صديق باشا وزير المالية المصرى ، وعلى الصفحات من ١٨٠ الى ١٨٥ ، نص دفاع وزرائيلى عن الصفقة فى مناقشات مجلس العموم فى فبراير ١٨٧٦ ، وفيهـا دفاع عن آل روتشيلد ، وبيان بالتزامهم السرية الكاملة فى اتمام الصفقة .

(١١) المرجع السابق ،ص١٨٩ و ١٩٠ و ١٩١ ، نص معاهدة برلين ١٣ يوليو ١٨٧٨ ، وقد صدقت عليها المانيا بتاريخ ٣ أغسطس ١٨٧٨ ، وتركيا العثمانية فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ وجاء فى المـادة ١٢ من المعاهدة، أن الباب العالى قد أبدى رغبته فى الحفاظ على الحرية الدينية، وأن يشملها بأوسع مدى ، وقد أخذ الاطراف علما بهذه الرغبة التلقائية .

ولا يجوز فى أى جزء من الامبراطورية العثمانية اعتبار الاختلاف الدينى أساســـا للابعاد ، أو عدم الاهلية للحقوق المدنية والسياسية أو تولى الوظائف العمومية ، أو المراتب ، أو الرتب ، أو مزاولة المهن والصنائع .

(١٢)

Voilquin Suzanne, Une Saint - Simonienne en Egypte, ou mémoires d'une fille de peuple, Paris, 1868.

تروى سوزان فولكان ، احدى النسان سيمونيات اللائى حضرن الى مصر عام ١٨٣٤ ، قصة مقتابلة دى لسبس ، نائب القنصل الفرنسى بالاسكندرية ، يوم وصولها الى الاسكندرية ، ١٢ نوفمبر ١٨٣٤ .

الفصـــل الثـــانى

البحث عن عبـــاءة

هرتزل يقابل مصطفى كامل عام ١٨٩٧ . الرسائل السرية بين مصطفى كامل وعبد الرحيم أحمد والخديو عباس الثانى. مصطفى كامل يبحث عن اصدقاء لمصر ، فرنسا والمانيـــا وروسيا ، وهرتزل يتجه اتجاها مضادا . البارون دى هيرش يحصل على امتياز مد السكة الحديد فى دول البلقان ، ويمول هجرة اليهود الى الارجنتين . هرتزل يقابل الامبراطور الالمانى ولهلم الثانى فى احدى المستعمرات اليهودية فى فلســطين . ويستعين بقسيس انجليزى من أصل المانى يؤمن بعـــودة المسيح .

لماذا ترك هرتزل تركيا والمانيا واتجه الى انجلترا ؟

مصطفى كامل يتجه الى جلاد ستون زعيم الاحرار ، وهرتزل يتجه الى سالسبورى ، خال بلفور وزعيم المحافظين .

يطلقون فى بريطانيا على العقود الاخيرة من القـــرن التاسع عشر « العصر الفكتورى » ، فقد حكمت فكتوريا انجلترا خمسين عاما ، واستحقت فيه الامبراطورية البريطانية هذا الوصف انها « لا تغرب عنها الشمس » .

كما يطلقون فى فرنسا على نفس الفترة اسم « العصر الجميـــل » وفيه انطلقت الامبراطورية الثانية فى مغامرات استعمارية من الجزائر الى افريقيا الى الهند الصينية ، ولم تكن المانيا اقل طمعا او طموحا ، لانها — وهى الدولة الرأسمالية الاوربية الثالثة ، ضربت ضربتها فى الشرق الاقصى ، وفى أفريقيا شرقا وغربا .

وفى هذه السنوات ، وفى ستينات القرن التاسع عشر ، ولد تيودور(١) هرتزل فى بودابست (٢ مايو ١٨٦٠) . وكان ابوه تاجرا من أثرياء عاصمـــة المجر ، وأصبح مديرا لبنك هنجاريا . وقد درس هرتزل القانون ، وقبـــل للمرافعة امام محاكم فينـــا فى ٣٠ يوليو ١٨٨٤ . ولكنه فضل الصـــحافة والسياسة على المحاماه .

والغريب أن يتودور هرتزل — داعية الدولة اليهودية — التقى بالزعيم الوطنى مصطفى كامل داعية جلاء الانجليز عن مصر . وفرق بين الرجلين ، والاكيد أن تيودور هرتزل التقى بمصطفى كامل فى رحلة الى فينا عام ١٨٩٧ ، ولكن اللقاء بينهما كان لقاء عابرى طريق .

وتكشف الخطابات السرية التى كان قد ارسلها مصطفى كامل الى صديقه عبد الرحيم احمد وكيل الادارة العربية « بالمعية السنية » أى قصر الخديو عباس حلمى الثانى ، وقد اشترت دار الوثائق المصرية بعابدين ١٨ رسالة من ورثة عبد الرحيم أحمد عام ١٩٦١ ، ان عبد الرحيم كان حلقـــة الاتصال بين مصطفى كامل والخديوى ، وقد ظلت العلاقة بينهما طيبة حتى انقلب الخديوى بعد الوفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ، والذى اطلقت فيه فرنسا يد انجلترا فى مصر فى مقابل اطلاق يد فرنسا فى المغرب العربى .

والخطابات فى غضون عام ١٨٩٥ . وكان مصطفى كامل يقيم بباريس ٣٢ شارع الجامعة(٢) ، وكان ينتقل منها الى بودابست وفينا . لاهمية الامبراطورية الهنجارية النمساوية ، ولاهمية المانيا القيصرية . وتصحح هذه الخطابات ما شاع من أن مصطفى كامل اعتمد على فرنسا وحدها اثناء النزاع بين لندن وباريس . فقد نشط هذا الشاب الوطنى،بررومانسيةشرقية وثقافة فرنسية ، بين عواصم اوربا . يكتب ويخطب ، ويتصل بكبار الصحفيين والكتاب والساسة .

وتكشف هذه الخطابات ان عبد الرحيم احمد ، الذى كان قاضيا فى المحكمة المختلطة بالمنصورة وكان من قبل مدرسا للعربية فى باريس ، قبل تولى منصب وكالة الادارة العربية بعابدين ، كان يعمد الى الخروج من الباب الخلفى لسراى عابدين ، بعيدا عن جواسيس اللورد كرومر لمقابلة مصطفى كامل وان مصطفى كامل كان يرسل اليه خطاباته من باريس اونولوز عن طريق « البوسته الفرنساوية » حتى لا تقع فى ايدى الانجليز، وكان الخديوى قد اصطدم بالانجليز منذ عام ١٨٩٣ عند تأليف وزارة مصطفى باشا فهمى . واصطدم مرة ثانية فى حادثة الحدود عام ١٨٩٤ حين اصطدم الضباط المصريون فى الجيش المصرى بالقادة الانجليز . وقد رأى عباس ردا على سياسة كرومر الحديدية والمتغطرسة أن يستعين بالمثقفين والضباط .

ووسط هذا الصراع العنيف بين المانيا وفرنسا وانجلترا وروسيا القيصرية — كان لابد من الاستفادة من المتناقضات والمصالح المتنافرة . وهكذا كان مصطفى كامل يتحرك وسط جو من الدسائس الشخصية . وتحت رقابة صارمة من سلطةالاحتلال، حتى ان كرومر كان يرسل جواسيسه بانتظام ليسأل عن اقارب مصطفى كامل ، وعائلته ، وظل يضايق شقيقه على فهمى كامل — وكان ضابطا فى الجيش ، حتى انزله الى رتبة نفر ، وأرغمه على المشاركة فى حملة السودان !

والأكيد ان صورة هذه الصراعات الدولية كانت واضحة امام الشاب مصطفى كامل ، ويبدو ان رحلاته واتصالاته كشفت له الصورة كاملة . ولهذا فهو ينصح الخديوى فى تقريره السرى — المؤرخ ١٩ سبتمبر ١٨٩٥ — « باستخدام كل الاجناس دون أن نفوض لاى أجنبى كان أمرنا ، ونستودعه اسرارنا ، لان الاوربى مهما بدت عليه علائم الصدق والاخلاص لسدة الامير

ولمصر ، فهو لا يبحث الا عن منفعته الخاصة . فان عرف أمورنا وأسرارنا ورأى فى افشائها لاعدائنا منفعة واحدة لا يتأنى لحظة عن افشائها » .

وهو ينصح أيضا فى نفس التقرير بالتودد الى المانيا والتقرب منها ، بكل الوسائل الممكنة — على حد قوله فى التقرير — ويشير الى « استخدام جريديتين أو ثلاثة المانية ، بل ويقترح « على الخديوى د عوة أبناء الامبراطور غليوم لزيارة مصر فى فصل الشتاء » .

ففرنسا وحدها لم تكن تكفى لمنافسة انجلترا . ولا يكفى هذا السباق المحموم للاستفادة من الغيرة أو المتناقضات ، بل ان المانيا ايضا تدق بعنف أبواب الشرق وأفريقيا . وهى فى الدرجة الاولى حليفة السلطان . ومنــذ اضطر المستشار الحديدى بسمارك للاستقالة عــام ١٨٩٠ لخــلافه مع الامبراطور ولهلم الثانى ، وكان شابا متحمسا أيضا للسيطرة العسكرية . وقد استطاع بسمارك منذ هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠ ، أن يصبح مهندس الحلف الثلاثى بين المانيا وروسيا والنمسا . وبدأت سياسة انقاذ المانيا من الاشتراكية « باصلاحات عمالية ضخمة ، وانفتحت شهية الالمان أيضا داخل الامبراطورية العثمانية حتى حصل « دويتش بنك » عام ١٨٩٨ على امتياز مد سكة حديد بغداد . وكان السلطان العثمانى فى ضائقة مالية . وقد تجمدت اطراف امبراطوريته الشاسعة وجفت مواردها الاقتصادية ، بل اهتزت سمعتها منذ عصيان محمد على على الباب العالى ورغبته فى الاستقلال بمصر .

وهكذا كان هذا اللقاء الغريب بين هرتزل ومصطفى كامل لقاء عابرى نفس الطريق ، ولكن كلا منهما كان يتجه اتجاها مختلفا .

مصطفى كامل كان يرتب اموره على اساس الحفاظ على الصلة مع تركيا العثمانية ، والتقارب مع فرنسا منافسة انجلترا ، والتودد لالمــانيا المنافس والخصم القوى الجديد . أما هرتزل فقد كان يتجه ، أو على الاصل ينتقل بالفكرة الصهيونية ، من الاستانة وبرلين ، ومن بودابست وفينا الى لندن ، عاصمة الاستعمار الاقوى والاكثر ضمانا .

لقــاء فى فندق متروبول

ويقول المؤرخ الوطنى عبد الرحمن الرافعى (ص ٧٧ من كتاب مصطفى كامل) : « أراد مصطفى كامل أن يسمع صوته أكثر عدد من رجال السياسة فى النمسا ، فاقام وليمة كبرى فى فندق متروبول مساء الاربعاء ٢٤ مارس ١٨٩٧ ، دعا اليها نيفا وثمانين مدعوا من النواب والصحفيين ، ومنهم الدكتور رزنر ، النائب النمساوى والطبيب الشهير ، وبعد أن تناولوا العشاء وقف الداعى ، وذكر رد الاحتلال البريطانى قالوا انه الاحتلال لستة شهور ، وله اليوم ١٥ عاما ، اى ثلاثون ستة شهور . وقد أشار مصطفى كامل فى خطابه الى أن الخديوى عباس تلقى علومه فى النمسا » .

ويروى هرتزل فى مــذكراته (ص ٦٢٥) بتاريــخ ٢٤ مارس ١٨٩٧ ما نصه : ــ « الموفد المصرى ، مصطفى كامل الذى كان قد زارنى من قبل ، زارنى ثانية . انه فى رحلة اخرى لجمع المشاعر المؤيدة لقضية الشعب المصرى الذى يسعى للخلاص من السيطرة البريطانية . ان هذا الشاب المشرقى يعطى انطباعا ممتازا . وهو مثقف وراق وذكى وبليغ . وقد دونته فى ذاكرتى لانه قد يلعب يوما ما دورا فى سياسة الشرق ، حيث قد نلتقى مرة ثانية » .

ويقول هرتزل : « أن سليل مضطهدينا فى مصرايم (أى مصر) يتنهد اليوم من عذاب الرق ، وتقــوده طريقه الى أنا اليهــودى ، طالبـــا مساعدتى الصحفية ... أشعر ، مع أننى لم أخبره بذلك ، بأنه مما يفيد قضيتنـــا أن يضطر الانجليز الى مغادرة مصر . فانهم سيضطرون انذاك ان يبحثـــوا عن طريق آخر الى الهند بدل قناة السويس ، التى ستضيع منهم ، أو على الاقل تصبح غير مأمونة . انذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم فى الطريق من يافا الى الخليج الفارسى » .

هرتزل فى بارس

وقد اشتغل هرتزل أول الامر محررا أدبيا فى جريدة « فينر الجماين زايتونج » ، أى جريدة فينا العامة ، ثم عينته جريدة « نوى فريى بريس »

أو الجريدة الحرة الجديدة كبرى الجرائد اليومية فى فينا مراسلا دائما غـــى باريس . ولا نجد دليلا على موهبة ادبية أكيدة ، ولكنه على اى حال وصل باريس ، وسط نشاط مالى وصراع محموم بين الحكومات الاوربية حول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وشهد تلك الحروب العنيفة بين بيوت المـــال اليهودية والكاثوليكية ، ووسط تلك الحمى حول سندات قناة الســـويس ومشروع قناة بناما .

فاذا وصل تيودور هرتزل باريس ؛ اذا به يرى ويلمس تلك الصراعات السرية — والعلنية احيانا — وتنكشف له تلك التيجان المعلقة على رؤوس ملوك غير متوجين من أسحاب رؤوس الاموال اليهودية ، وفـــوق هـــذه الرؤوس ملكان هما البارون موريس دى هـــــيرش والبارون ادمـــون دى روتشيلد .

ويصف دافيد س . لاندر ، استاذ الاقتصاد بجامعة كولومبيا ، فى كتابه «بنوكوباشوات»(٢) وكان قد حصل على منحة دراسية للاطلاع على طرف من الارشيف السرى لاحد البنوك الفرنسية التى أقرضت الخديو اسماعيل، تلك الفترة الخطيرة من دبلوماسية البنوك . كما يكشف صراع الاقليـــات الدينية التى تربعت فوق عروش المـــال .

فقد صعدت تلك الاقليات ، وعلى رأسها الاقلية اليهودية ، وتركزت فى المانيا ، ثم انتشرت بغير جلبة أو ضوضاء ، وسط بلاطات الملوك والامراء والقياصرة ، ثم تبعتها اقلية أخرى هى جماعة الكلفنيين ، أتباع كلفن ، بعـــد هروبهم من الفلاندرز وفرنسا فى القرن ١٦، (وتبعهم اليونانيون، والكويكرز)، ومثل هذه الشبكات المالية عبر القارة الاوروبية ، ثم عبر البحار ، كانـــت تتطلب فى الدرجة الاولى السرية والثقة وروابط القربى بين العائلات ، بالدين والمصاهرة .

وقد كسبت تلك البيوت المالية الكبرى من الحرب والسلام معا .

فكانت وراء حروب نابليون ، ووراء هزيمته . وكسبت من التدمير

والتعمير معا . فالحرب تحتاج الى القروض والاموال والتجهيزات والمعدات، والسلم يحتاج الى التعمير بعد الدمار ، واذا باكبر بيت مالى هـو بيت آل روتشيلد ، وقد بدأ فى فرانكفورت فى العشرين عاما الاولى من القرن التاسع عشر ، ثم تربعوا من غير منازع فى الفترة ما بين ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . وظهرت فى امريكا تلك المجموعة القائدة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فى عائلة براون ، وقد بدأوا فى بلتمور باسم الكسندر براون وشركاه ، وبدأوا بتجارة الكتان واستيراده ، ثم انتقلوا الى البنوك حوالى ١٨٣٥ ، فأسسوا فروعا فى نيويورك وفيلادلفيا وليفربول . ثم ظهرت العائلات السويسرية أيضا مثل هينش ، وأوديز ، وكانوا يرسلون ابناءهم الى باريس لانشاء البيوت المالية بالتعاون مع اقاربهم فى جنيف .

واذا بألمانيا قد اصبحت وطن تلك العروش المالية ، وكان اغلبهم من اليهود ، فكانت عائلة أوبنهايم فى كولونيا وعائلة بامبرجر فى مينز ، وعائلة هابر فى كارلسرو ، وعائلة هاين وفاربرج فى هامبور ج، وتليها عائلات شترن، وداوخستر ، وجولد سميدت ، وبعد ذلك أو قبل ذلك مجموعة فرانكفورت التليدة واقواها آل روتشيلد(٤) .

ووسط هذا الجو ، استقر هرتزل فى باريس ، وسط فضيحة قناة بناما وهى فضيحة هزت فرنسا لافلاس الشركة التى لم تتم أعمالها ، وكان بطلا هذه الفضيحة هو فردناند دى ليسبس الذى تألق نجمه بعد اتمام قناة السويس ، وقد تأسست الشركة العالمية لقناة بنما فى عام ١٨٨١ . والبطل الثانى هو المهندس ايفل ، مصمم ومنفذ برج ايفل الشهير ، وقد فضحت هذه الفضيحة القروض الربوية الهائلة التى قامت بها البنوك ، مما اثار موجة من معاداة السامية ، أو ما عرف بقضية الضابط دريفوس . اليهودى الفرنسى الذى اتهم باتصاله بالمانيا ، وقد انقسم الرأى العام الفرنسى حولها(٥) ، (وقد بدأت القضية ١٨٩٤ وانتهت ١٩٠٦) .

وانعكست القضية على مفكرى وكتاب فرنسا ، فظهر الكاتب ادوار درمون Edouard Drumont والذى الف كتاب « فرنسا اليهودية » عام ١٨٨٦ ، وفيه يتحدث عن مؤامرة « يهودية ماسونية » ضد فرنسا . وأصبح درمون نائبا عن الجزائر ، وكان من معارضى قانون ٢٤ اكتوبر ١٨٧٠ .

الذى منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر . بل وطالب بالغاء هذا القانون، حتى طرد من البرلمان .

وقد حاول هرتزل الكشف عن مواهبه الادبية ، فألف مسرحيته « الجيتو الجديد » Lenouveau Ghetto ولم تكشف عن موهبة ذات بال ، ولكنها انتهت بهذه السطور الموحية :

« أيها اليهود . ياأخوتى . حتى يأتى اليوم الذى يتركونكم فيه تعيشون بسلام . لماذا يتمسكون بنا بمثل هذه القوة ؟ أريد الخروج .. الخروج .. الخورج أخيرا من الجيتو » ؟

وهكذا كشفت المسرحية أن هرتزل يريد الخروج من الجيتو اليهودى الذى فرضه الاقطاع الاوروبى ، وأنه يريد وداع هذا الجيتو الذى يخنق امكانيات التوسع المالى والتجارى الذى يتراءى أمام بيوت المال التى كانت قد نشرت شبكاتها عبر أوروبا ، وعبر البحار وضربت ضربتها العنيفة من السويس الى بنما ، ومن فرانكفورت الى الاستانة . وقد ظهر ان الطموح الصهيونى لا يقنع بمساواة اليهود بغير اليهود فى فرنسا ، منذ قرارات نابليون بونابرت، ولا يقنع كذلك باصدار قرار كريمييه باعطاء يهود الجزائر الجنسية الفرنسية عام ١٨٧٠ ، وكذلك لا يقنع بنصوص معاهدة برلين عقب الحرب الروسية التركية ، بعدم التفرقة فى الامبراطورية العثمانية فى اسيا واوربا على حد سواء ، بسبب الدين او العقيدة .

الخروج .. الى اين ؟

وهنا يظهر دور هرتزل ، الذى لم يكن من أهل الفكر ، بل كان من أهل الحركة والعمل ، التقت احلامه بنشاطات ملوك المال . فأولى وجهه اول الامر وجه البارون دى هيرش ، وهو سليل بيت مالى عتيد لعب دورا كبيرا فى حروب نابليون حين زادت الاحتياجات للقروض ، وتجهيز الجيوش بالمؤن والمعدات ، وقد استقر يعقوب دى هيرش فى ميونيخ عاصمة بافاريا وحصل على لقب بارون توارثه أبناؤه من بعده ، وقد اشتغل صراف

البلاط ، وكسب لابناء ديانته حقوقا كثيرة (بعد ان كانت المانيا قد طردت الجالية اليهودية فى العصور الوسطى ، عادت لتسمح لبعضهم بالاقامة المقيده ، كمنعهم من امتلاك الاراضى الزراعية ، او الخدمة فى الجيش ، او تولى المناصب الحكومية ، وكانت ولاية فرانكفورت لا تسمح لليهود بأكثر من ١٢ زيجة فى السنة ، بقصد تحديد عدد اليهود) ، فاذا ازاحت الحرب تلك السدود ، صمد نفوذ ال هيرش ، ولعبت دور التمويل لخطوط السكك الحديدية فى أوربا .

ويصاهر البارون « التركى » عائلة يهودية مالية أخرى هى عائلة شوفنس هايم ، المستقرة فى بلجيكا ، وقد لعبت هذه العائلة دورا كبيرا فى أقراض الخديوى اسماعيل . وكانت عائلة كلارا شوفنس هايم تملك شبكة من البنوك تمتد فى القارات الاربع ، من الاستانة الى القاهرة الى لندن وسان فرانسسكو . وقد خدع البارون « التركى » رجل بروسيا القوى ، حين عرض مشروع تشغيل خط سكه حديد لكسمبورج بدعوى أن الحكومة الفرنسية قد تخلت عن المشروع لكثرة خسائره . وبعد ان وافق بسمارك عدو فرنسا على التمويل انقلب دى هيرش الى الحكومة الفرنسية يخطرها بقرار غريمها ، فسارعت فرنسا بالموافقة على المشروع .

وانتقل دى هيرش من المانيا الى بلجيكا ، بدعوى ان تصبح زوجته كلارا بالقرب من امها ، واغلب الظن ان انتقاله لم يكن حبا لحماته ، ولكن خشية غضب بسمارك ، وكانت كلارا زوجته تعمل من قبل سكرتيرة لابيها الممول الكبير ، وكانت مدربة على الشئون المالية ، فعاونته معاونة كبيرة للتعرف على ممول بلجيكى كاثوليكى هو الكونت لانجران دومنسو . ولاول مرة يتحالف الرأسمال اليهودى مع الكاثوليكى . فقد كان المليونير الكونت دومنسو صاحب امبراطورية مالية ضخمة ، ضمت ٣٢ بنكا ومؤسسة للرهونات والتأمين ، والمضاربة فى الأراضى . وكان دمنسو داهية هو الآخر ، فقد اقنع البابا بيوس التاسع بأن يعاونه فى تأسيس امبراطورية مالية كاثوليكية تواجه الامبراطوريات المالية اليهودية ، وحصل على عون البابا وبركته ، بل وعلى لقب الكونت بقرار من قداسته .

والغريب ان دومنسو افلس فجأة وسط ظروف غامضة ومفاجئة ، وقد ارجعها البعض الى المضاربات الحمقاء ، وارجعها البعض الى دسائس دى هيرش الخفية .

وكانت خاتمة تلك الصفقة اليهودية ، الكاثوليكية دمارا لامبراطورية دومنسو ، ولكنها ايضا كانت خيرا على دى هيرش ، لانه ورث أكبر صفقة فى حياته ، او صفقة العمر ، وهى امتياز شبكة السكة الحديدية فى الجزء الاوروبى من تركيا العثمانية .

وفى ٧ ديسمبر ١٧٦٩ ، صدر الفرمان العثمانى الهمايونى بمنح البـارون موريس دى هيرش حق الامتياز ، وأنفق دى هيرش من الرشاوى عن سعة ، ولم يبخل حتى عن الصدر العظم ، (وقد بلغت الرشوة ٤٠٠ ألف ليرة عثمانية) ، واستغرق المشروع عشرين عاما ، وفاحت رائحـة التلاعب ، واصطادت الصحف الالمـانية المترصدة الفرصة فنشرت نتفـا من التعلايلات التى أجراها هيرش عند التنفيذ ، وقد ازعج الالمـان هذا التغلغل المستفحل داخل الامبراطورية العثمانية الحليفة . وكشفت الصحف أن الخط الحديدى امتلأ بالانحناءات والانعطافات ، لتطويل خطوط السكة الحـديد ، لأن الحساب كان بالكلومترات ! وكشـفت كذلك أن دى هيرش ضرب عرض الحائط بمسألة تعويض الاهالى الذين يمر فى أملاكهم خط السكة الحديد ..الى غير ذلك مما حدا الحكومة التركية الى المطـالبة بالتعويض (وقد طالبت بـ ١٣٢ مليون فرنك ، ورضيت بـ ٢٣ مليون فرنك ، بعد وساطة بريطانية أمريكية تزعمها المليونير شتراوس) .

وهكذا أصبح البارون التركى - بتلك الصفقة من أغنى الاغنيـاء . وعلقت بسمعته الاوحال ، ولكنه ظل متربعـا على عرشه ، يحمل أربـع جنسيات .

فى وقت واحد ، اذا ما اغضب بسمارك انتقل الى بروكسل ، واذا اغضب السلطان سعى لارضاء خصومه ... وقد اعتبره اليهود ملكا غير متوج ، حتى انهم كانوا يطلقون على أبنائهم اسمه ، (وله فى القـدس ، ومـدن اسرائيلية الآن شوارع باسمه) ، واتجه البارون الى تأسيس الاليانس الاسرائيلى العالمى ، لمعاونة يهود روسـيا على التوطن فى الارجنتين .

وكانت الارجنتين ، ضمن بلاد أمريكا اللاتينية ، وقد خلت من السـكان . ولم يزد عدد سكانها على مليون ونصف مليون ، فى عام ١٨٧٠ ، وقـد

انتقلت اليهـــا رؤوس الاموال الاوروبية ، وتوغل فيهــا النفــوذ الالمـــانى ومن هنا جاءت فكرة التوطين والاستعمار اليهودى فى الارجنتين ، وتوطن فيها المهاجرون البيض من ايطاليا وأسبانيا والباسك ٠

ويقابل هرتزل فى عام ١٨٩٥ ، البارون موريش دى هيرش ، يحمل مذكرة من ٢٢ صفحة ، يعرض فيها أفكاره عن أحياء الدولة اليهودية ، ويعرض فيها عليه ان يتزعم اليهود الفقـــراء ، ولكن هيرش لا يلقى اليه بالا ، اذ لم يقرأ غير بضعة صفحات من مذكرته ، ويبدو أنـــــه كان قانعـــا بفكرة الارجنتين ، وراغبا فى بقاء فكرة الاتجاه بالتوطن اليهودى بعيــــدا عن العثمانيين والالمان .

وهنا يتوجه هرتزل الى ملك آخر ، هو البارون دى روتشلد ، وكان قد كتب هذا الكتيب الذى اعتبر أنجيل الصهيونية وهو لا يحتـــوى فكرا كثيرا ، ولا تأملا عميقا فى المشكلة اليهودية ، قدر ما يحمل من خطط عمل ، وانتقال من الفكر الى التنفيذ ، بحماسة الخارج من الجيتو ، والمنطلق الى أفاق المستعمرات الجديدة .

ويسجل حاييم وايزمان ، ان هذا الرجل ـــ أى هرتزل ـــ لفت النظر بحميته وحماسه ، فقد كان رجل عمل وتنفيذ أكثر منه رجل فكر وتأمل . وفى هذا الكتيب لم يذكر هرتزل ان الدولة اليهودية ستنشأ بالضرورة فى فلسطين ، كما لم يذكر ان اللغة العبرية هى اللغة الرسمية .

ولكنه تحدث بطريقة عملية عن فكرة انشاء مؤتمر او جمعية عمومية أو برلمان ينطق باسم « كل اليهود فى العالم » ثم تحدث عن انشاء صندوق مالى يجمع التبرعات من أغنياء اليهود (وفقرائهم أيضا) ، وتحدث كذلك عن منظمة عالمية دائمة ، وعن عدد من المهندســين والفنيين المهتمـــين بالصناعة الجديثة .

وفى الكتيب ـــ بعد ذلك ـــ شذرات عن بعث اليهود ، وحديث عن جيل جديد يبعث رسالة المكابيين (الذين حاربوا تهلين اليهود فى فلسطين)، وقد ختمه ، كما ختم مسرحيته الغثة ، بشعار مدوى :

ـــ « ســـوف يتحرر العـــالم بتحررنا ؛ وســـوف يثرى بثرائنا ، وسيعظم تدره بعظمتنا » .

النجـاح فى لنـدن

ومن يتفحص مذكرات هرتزل يكتشف انه كان يبحث عن عباءة . أى عن دولة كبرى تحمى فكرته . فلا زالت اصداء نداء نابليون تتـردد فى اذنيه . وقد كشف هرتزل — ولا بد من الاعتراف — عن مهارة بالغة فى الانتقال من عباءة الى أخرى .

فبدأ عام ١٨٩٦ ، يحاول اقناع السـفير العثمانى فى فيـنـا ، بأن حل مشكلة الامبراطورية العثمانية هى أن يقدم اليهود لها قرضـا تسوى به مشاكلها المالية وتنفذ اصلاحاتها . بل حاول اقناعه أيضا بأن اليهود يستطيعون تنظيم التعليم « فى الامبراطورية » حتى لا يأثر الطلاب الآتراك بالأفكار الضارة .

وظل يتربص بالامبراطورية العثمانية ، متمنيا اسـتمرار بؤسـها الاقتصادى حتى قال : (ص ٤٦٥) :

« جاءت من لندن أخبار عن تفكير الدول فى خلع عبد الحميـد . واذا تحقق ذلك ماتت الفكرة الصهيونية مدة طويلة من الوقت . فان السلطان الجديد سيجد المال ، ولن يحتاج الينا » ، ولا يخفى هرتزل مخاوفه من ان ينجح السلطان فى الحصول على قرض روسى فرنسى ويقول (ص ٤٩٤).

«يهدد الصهيونية الآن خطر جسيم . هناك اعداد لعون روسى — فرنسى للمالية التركية . اذا تحقق ذلك فشلت آمالنا بالحصـول على فلسطين . لذلك على كبار المصرفيين اليهود الا يساعدوا فى تحقيق ذلك . وقد تكلمت أمس فى الموضوع فى الاتحـاد المحلى ، وأوعزت الى لجنتى فى انجلترا بالشروع فى حملة تعارض هذا القرض » .

وقد تمنى هرتزل بقاء الرجل العثمانى المريض مريضا ، ولكنه نفض

يديه تماما من الانجاه الى الباب العالى والقيصر الالمانى حين رحب السلطان بالقرض « اليهودى » ، مع السماح باليهود فى الامبراطورية شرط عدم المساس بالقدس ، وعدم تجمع اليهود معا .

وفى نفس هذه الفترة العثمانية الألمانية من دبلوماسية هرتزل . نكتشف أنه يحاول أيضا لبس عباءة ألمانيا . وقد استعان بقس انجليزى. من أصل ألمانى ، كان مربيا لابن دوق بادن الكبير . وصديقا لولهم الثانى قيصر ألمانيا . وقد وفق هرتزل فى الاختيار . لان القس هكلر كتب كتابا عام ١٨٨٢ عنوانه « دعوة اليهود الى فلسطين حسب النبؤات » . وكان راعى السفارة البريطانية فى فينيا من أنصار الفكرة الصهيونية « لأنه قام بحساب يستند على نبؤة فى عهد عمر . انه بعد اثنين وأربعين شهرا تنبؤيا ستعود فلسطين لليهود ، وهذا التاريخ يوافق عام ١٨٩٧ — ١٨٩٨ » . (ص ٣١٠ من مذكرات هرتزل).

ويستغل هرتزل هذا القس العجيب « الذى يحضر فى غرفته خريطة لفلسطين (معدة لضباط الحربية البريطانية) ويفرد له خريطة تغطى كل أرض الغرفة ، قائلا » :

« لقد هيأنا لك الاساس » .

والمهم أن هرتزل يستطيع مقابلة ولهلم الثانى مرتين وتتم المقابلة فى فلسطين ، عام ١٨٩٨، وكان ولهلم الثانى يتودد الى السلطان والمسلمين، وقد حصلت ألمانيا على امتياز سكة حديد بغداد وكانت تقديرات هرتزل فى هذه الفترة من فرنسا ضعيفة منذ هزيمة ١٨٧٠ ، وروسيا تريد التخلص من اليهود ، ولذلك عرض هرتزل على ولهلم فكرة اقامة شركة يهودية للاراضى فى سوريا وفلسطين تحت حماية ألمانيا . وحاول اقناعه بالتوسط لدى السلطان .

ويستقبل ولهلم الثانى هرتزل فى القدس ، أثناء زيارته لاحدى المستعمرات الصهيونية ، وهى مستعمرة « تكهفا اسرائيل » ، ولكن الحديث لا يطول ، لان القيصر كان على صهوة حصانه (١٨ أكتوبر ١٨٩٨)، وفى المرة الثانية يلقى هرتزل عليه خطابا يعرض الفكرة (فى ٢ نوفمبر

١٨٩٨) ، قائلا : — اننا سنبعد اليهود عن الأحزاب الثورية . (ص ٧٢٨ من مذكرات هرتزل) .

وأى ذكاء جهنمى هذا الذى يوحى لهرتزل بهذه الفكرة ، وهو يعلم ان ولهلم يريد — فعلا — تخليص المانيا من الافكار الاشتراكية بسياسته الاصلاحية ، وأى ذكاء هذا الذى جعله — فى نفس الوقت يحس باتجاه الربح . فلا تركيا العثمانية ستنصفه ، ولا ألمانيا القيصرية ستساعده ، ولا حل الا الاتجاه الى لندن ، عاصمة العواصم الاستعمارية ... حيث سالسبورى ، خال آرثر بلفور ، وحيث جوزيف تشمبرلين .

فانجلترا قد طرحت فكرة الجلاء عن مصر نهائيا بعد وعودها المتكررة وانجلترا يحكمها حزب المحافظين ، وفيها سالسبورى الذى أوحى اليه دزرائيلى منذ معاهدة برلين بتقديم مذكرة « المسألة الصهيونية فى المسألة الشرقية » . وانجلترا تحارب حرب البوير ، فى جنوب افريقيا ، ويهود جنوب أفريقيا يملكون المناجم ، ويستطيعون تمويل الحملة ، وانجلترا فوق ذلك لها رجل قوى فى مصر هو اللورد كرومر ، الذى بلغ من سطوته ان الأميرة نازلى (الملكة فيما بعد) كانت تحكى ان الخديو توفيق حين كان يسمع أصوات السياس الذين يسبقون مركبة « اللورد » ، كان لونه يبيض من الخوف . بل يروى سير رونالد ستورز كرومر بلغت به السطوة والجبروت ، انه طلب مقابلة الملك ادوارد خلف فكتوريا ، وأراد ان يقابله فى اليوم التالى وحدد القصر الملكى موعدا بعد ثلاثة أيام ، فرفض كرومر ، وأصر على تحديد الموعد الذى أراده ، لانه يريد الذهاب لتمضية أجازته فى اسكتلنده .

وقد قال الملك ادوارد :

— أن كرومر يظن اننى خديوى مصر(٦) .

اذن لقد عرف هرتزل اتجاه الرياح . ومن هم الرجال الاقوياء الذين سيعطونه امتياز توطين اليهود فى سيناء .

وهنا نصل فى نهاية عام ١٩٠٢ وبداية عام ١٩٠٣ ، عندما بدأت أول

محاولة لتوطين اليهودفىسيناء بالقرب من فلسطين.ولم تكن فى الحقيقةمحاولة ســـــاذجة . بل كان كل شىء قد أعد تماما ، من اتصـــالات ، وعروض ، وخرائط ، وشخصيات .

لقد وجد هرتزل أخيرا عباءته التى يرتديها الى فلسطين وهى عباءة « بريطانيا العظمى » .. الدولة الأعظم والأقوى بين دول أوربا قاطبة .

وهرتزل نفسه يقول منذ عام ١٨٩٨ ، وفى ٢٢ فبراير ما نصه :

ــ « منذ اللحظة الاولى التى دخلت فيهـــا الحركة ــ توجهت عيناى ناحية انجلترا » . وكانت انجلترا نفسها قد اهتمت بفلسطين منذ عام ١٨٦٥ منذ بداية أعمـــال صندوق اكتشاف فلسطين . وقد قام كتشنر بعمل خرائط فلسطين من عام ١٨٧٢ الى ١٨٧٨ ، وطالب بتعيين قنصل بريطانى فى حيفا باعتبارها أقرب الطرق الى الهند . وقـــد كان حلم هرتزل هو الوصول الى امتياز لشركة كما حصل روديس على امتياز شركة جنـــوب افريقيا البريطانية ، حتى أنه قال أن الشخصيات التى تلعب فى رقعـــــة شطرنجى هى سيسيل روديس الذى سأقابله بعـــد عودته من اسكتلنده . وروزفلت الرئيس الجديد من خـــلال جومتهيل ، وملك انجلترا من خـــلال اسقف ريبون ، والقيصر من خـــلال الجنرال فون هيس » (مذكـــرات هرتزل ، المجلد ٣ ، ص ١١٧٩) .

وليس غريبا اذن أن يقول هرتزل أثنـــاء انعقـــاد المؤتمر الصهيونى الرابع فى لنـــدن :

ــ « انجلترا العظيمة . انجلترا الحرة . انجلترا التى تنظر بعيونها الى كل البحار ، سوف تفهمنا ، وتدرك أهدافنا . ان الفكرة الصهيونية ســـوف تزداد ارتفـــاعا وشبابا من هذا المكان »(٧) .

هوامش الفصل الثانى

البحث عن عباءة

(ا) تدل كلمة هرتزل على الطابع الالمانى لعائلة هرتزل. فقد ولد فى النمسا ، وهرتزل تصغير لكلمة هيرتز المرادف الالمانى لكلمة قلب . والمرادف بالعبرية ليب ، او لو بيل ، او لوبب ، أو لو . وكانت كلها أسماء للعائلة .

ولم يعرف عن هرتزل تمسكه باهداب الدين . كما عرف باعجابه الشديد بشخصية فردنان ديلسبس ، الذى كان نموذجا للاستعمارى الناجح . (راجع كتاب هرتزل ، ص ٤٤ و ٤٥ لديزموند استيوارت) .

٢ ــ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ، نشرها وتتم لهسا د. محمد أنيس (من ٨ يونيو ١٨٩٥ ــ الى ١٩ فبراير ١٨٩٦) مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ ويقول الصحافى العجوز ، توفيق حبيب ، فى جريدة الاهرام ، تحت عنوان : « على الهامش » ، نوفمبر ١٩٣٩ ، ومن هؤلاء الابطال المجهولين عبد الرحيم أحمد بك ، وقد نشأ فى الازهر ، وزامل فيه سعد زغلول ، وابراهيم الهلباوى ، ثم دخل دار العلوم فى نشأتها الاولى ، وانتدب لتدريس سمو الخديو وسمو الامير محمد على توفيق اللغة العربية وأصول الدين فى أوربا ، وانتهز فرصة تعيينه مدرسا للعربية فى السوربون ، ثم درس الحقوق ، وعين وكيلا للنيابة المختلطة بالمنصورة ، ولما تولى الخديو عباس الحكم عام ١٨٩٢ ، أمر بنقل عبد الرحيم الى المعية .

٣ ــ كتاب دافيد س. لاندر ، بنوك وباشوات ، يكشف الحرب السرية بين الفريد اندريه وادوار دبرفيو ، من جانب وبين آل روتشيلد حول السباق لاقراض الخديو اسماعيل ، وشراء أسهم قناة السويس . وقد وجدت فى أحدى حجرات أرشيف بنك فرنسا رسائل تكشف أطرافا من هذه الحرب . وكانت جامعة هارفارد قد عاونت المؤلف للقيام بهذا البحث عام ٤٨ و ٤٩ وعام ٥٢ و ١٩٥٣ ترجم الكتاب ، د. عبد العظيم أنيس ، طبعة دار المعارف ١٩٦٦.

(٤) — يصور مؤرخو الصهيونية دعوة هرتزل أنهـا رد فعـل للمعاداة للسامية ، وخاصة بعد قضية الضابط دريفوس . ولكن تحليل الفكر الصهيونى يثبت أن الصهيونية ترفض فكرة الاندماج أصلا ، أى ترفض تطور الاديمقراطية فى البـلاد الغربية ، واكتساب اليهـود لصنعة المواطنة والمساواة أمام القانون . وقد بدأ هرتزل رفض الاندماج قبل قضية دريفوس . بل انه يعتبر أن المعـاداة للسامية تسـاعد على تقوية الفكرة الصهيونية ، وهو يقول :

ان معاداة السامية ، وهى قوة ضخمة لا واعيـة بين الجماهير ، لن تؤذى اليهود . وأنا أعتبرها حركة مفيـدة بالنسـبة للشخصية اليهودية (مذكرات هرتزل الكاملة — الطبعة الامريكية ص ١٠) .

وقـال :

أنا أتهم معاداة السامية . لقد احتفظنا نحن اليهود بأنفسنا ، رغم ان ذلك لم يكن بسبب خطأ من جانبنا ، كجسد أجنبى بين الامم المختلفـة . ولا بد أن نستفيد شخصياتنا هنـا عن طريـق نوع آخر من أنواع الضغط . وفى الواقـع أن معـاداة السامية هى احدى نتـائج تحرير اليهود . (المذكرات الكاملة — الطبعة الامريكية ص ٩) .

(٥) كتاب رونالد ستورز ، المرجع السابق .

(٦) — مذكرات الخديوى عباس حلمى الثانى ، جريدة المصرى مايو ١٩٥١ .

(٧) — كتاب Israel Choen, The Zionist Mouvement (N.Y., 1946), P. 76.

الفصـــل الثالث
مدافع الصهيونية كاتمـــة الصـــوت !

ماذا قال هرتزل لروتشيلد . ولمـــاذا رفض الوطن فى العراق ؟ مفاوضات هرتزل مع تشمبرلين حول قبرص . تشمبرلين لا يعرف مكان سيناء بالتحديد . من هم أعضـــاء البعثة الصهيونية الى مصر عام ١٩٠٣ . تعليمات بالسرية المطلقة . خرائط جيولوجية لمصر لالمانى قبل الاحتلال . ثلاث خرائط لسيناء . واحده مع المندوب ، وواحـــده مع البعثة . وثالثة مع هرتزل فى فيينا . كل شىء معد حتى شراء الأوراق ، والاقلام من الاسكندرية .

كيف تم كل شىء فى سرية كاملة .

ادرك هرتزل أن الطريق الى سيناء لا يمر فى الاستانة ، أو برلين. او فيينا فلا السلطان يسعفه . ولا القيصر يستطيع . ولكن لندن ، والامبراطورية العظمى هى أول الطريق . وتبدأ رحلة المفاوضات والضغوط. وقد تخلص نهائيا من فكرة البارون دى هيرش لتوطين اليهود فى الارجنتين. وتخلص نهائيا من امكانية تقديم قرض للسلطان العثمانى . ونستطيع أن نكشف ذلك تماما من اتجاه المؤتمرات الصهيونية التى كان هرتزل يتزعمها. فقد انعقد المؤتمر الأول فى بازل فى أغسطس ١٨٩٧ ، والثانى فى نفس المكان بعد عام واحد فى نفس الشهر ، والثالث فى نفس المكان بعد عام آخر فى نفس الشهر عام ١٨٩٩ .

وقد انتقل هرتزل فى السنة الرابعة بالمؤتمر الرابع الى لندن فى أغسطس عام ١٩٠٠ وكما انتقل هرتزل من الاستانة ، وفيينا وبرلين الى لندن كذلك انتقل من المليونير دى هيرش الى الملك الثانى المليونير روتشيلد .

والآن ، اختمرت الفكرة تماما ، وانتهت الى حركة « عالمية » ليهود العالم ، والى انشاء « صندوق قومى » ولم يبق غير الحصول على الامتياز للبدء فى هجرة جماعية ومنظمة . ووقع الاختيار على شبه جزيرة سيناء .

وبنفس السرية ، يجتمع هرتزل ، ٤ يوليو ١٩٠٢ بالمليونير روتشيلد على الغذاء . ويقول (الجزء ٤ من مذكرات هرتزل ص ١٢٩٤) .
قلت له اى لروتشيلد :

ـ أريدمطالبة انجلترا بالتنازل لنا عنامتياز انشاء مستعمرة يهودية.
فيجيبه روتشيلد بخبرة المالى الكبيرة :

ـ ان كلمة « امتياز » لا تحظى بسمعة طيبة ..
فيقول هرتزل :

ـ سمها ما شئت . ان ما اريده ، هو مستعمرة يهودية ، فى احدى المتلكات البريطانية .

ـــ خذ اذن أوغنده .

ويعترض هرتزل ، مشيرا الى الحاضرين فى قاعة الطعام ، وانـــه لا يستطيع الحديث بملء حريته ، ويتناول ورقة ، ويكتب عليها الكلمات الآتيـــة :

« شبه جزيرة سيناء ، فلسطين المصرية ، قبرص » .

وهنا يسلم هرتزل ورقة أخرى لروتشيلد كتب عليها :

ـــ اتصل بالسلطان للحصول على المال .
فيرد عليـــه :

ـــ بالرغم من اننى تمكنت من وقف الاعتمـــادات لرومانيا بســـبب سياستها ، المناهضة لليهود، الا اننى لا أستطيع تحقيق ما تطلبه: لانه فوق طاقتى ، واذا علمت الدول العظمى عن انشاء خط سكة حديد عبر الاناضول ، فليس فى مقدورى وقف مشروعاتها .
ويعود هرتزل الى القول :

ـــ لقد عرض السلطان وادى الفرات (العراق) .
ثم تبدو الدهشة على وجه روتشيلد فيتساءل :

ـــ وهل رفضت ؟

فيقول هرتزل : نعم !

مفاوضات تشمبرلين

وقد سهل له الصحفى البريطانى الصهيونى جاكوب جرينبرج ـــ وكان على صلة وثيقة بوزير المستعمرات جوزيف تشمبرلين - لقاء هذا الرجل ، كما سهل له روتشيلدى آخر وهو اللورد ناتان روتشيلد - عضو البرلمان البريطانى - نفس المهمة .

ويقول هرتزل فى مذكراته عن هذا اللقاء :

حين بدأت الاقتراحات حول تخصيص قبرص للهجرة اليهودية ، قال لى تشمبرلين :

ولكن من الصعب طرد هؤلاء النـــــاس المسيحيين والاتراك المسلمين من أجل استيطان مهاجرين يهود .

وقال تشمبرلين :

ـــ كما ان هناك صعوبات دولية جمة « اذ ستقوم قيامة روسيا ، وقيامة اليونان ، وكذلك مقاومة أهل الجزيرة انفسهم ، ولاسيما العمـــال الذين سوف يشعرون بوطأة المنافسة اليهودية ، أسوة بما وقع من نقابات العمال فى انجلترا » .

وقال جوزيف تشمبرلين :

ـــ انى كوزير فى الحكومة التى يرأسها أرثر جيمس بلفور، لا استطيع الاقدام على مثل هذا الاجراء ضد رغبة الأهالى ، ولاسيما اذا كانوا من البيض .

واذا أشرتم على بأى جزء آخر من الممتلكات البريطانية التى لا يوجد فيها سكان بيض فانى على استعداد للمناقشة .

فرد هرتزل بقوله :

« اذا استطاعت شركة يهودية وضع اقدامها فى سيناء والعريش فلا شك ان القبارصة انفسهم ، سيبهرهم الذهب السائل الذى سيتدفق على المنطقة ! وقد يذهب المسيحيون الى اليونان وجزيرة كريت ، كما يذهـــب المسلمون الى تركيا ويكونون سعداء لو باعوا لنا أراضيهم بأسعار سخية».

وعندئذ تحول النقاش الى منطقة العريش فى سيناء .

ويحكى هرتزل ان جوزيف تشمبرلين نهض ليلقى نظرة على الخريطة للتحقق من موقعها ولما تبين له ان العريش تقع فى شبه جزيرة سيناء على الحدود المصرية التركية .

قال الوزير :

— ان هذا لا يقع فى اختصاصى ، وأية مفاوضة فى هذا الشأن يجب ان تجرى مع اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر .

ويبدو ان تشمبرلين — مثل غيره من الساسة البريطانيين — كانوا لا يرون مانعا من تشجيع الحركة الصهيونية ، منعا لهجرة اليهود الى بريطانيا ذاتها ، كوسيلة لخضوعهم للمصالح والسياسة البريطانية لو استقروا فى فلسطين او أوغنده أو قبرص .

وفى اليوم التالى ، لمقابلة هرتزل لتشمبرلين،وبناء على اقتراح الوزير، قابل هرتزل الماركيز لانسدون « وزير الخارجية » .

وقد وافق لانسدون على مشروع هرتزل ، وأبدى استعداده ، لكتابة رسالة الى المعتمد البريطانى اللورد كرومر يرسل فيها بالصحفى جرينبرج للقاهرة — كمندوب من هرتزل — لبحث الصفقة .

ويقول هرتزل فى مذكراته بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٩٠٢ (ص ١٣٨١)

— استلمت أمس جواب الماركيز لانسدون ، وقد كتبه سيرت . هـ . ساندرسون وهو وثيقة تاريخية .

اللورد كرومر يقول ان مشروع شبه جزيرة سيناء سيكون محتمل التحقيق ، اذا وجدت اللجنة أن الظروف الراهنة تسمح به . ستشترط الحكومة المصرية فقط الحصول على الجنسية العثمانية ، ودفع تبرعات سنوية لحفظ النظام فى الداخل والخارج .

ويقول فى ص ١٣٨٢ :

ـ سأرسل بعثة الى هناك : مرمورك المهندس المعمارى . وكسلر المهندس والبروفيسور وأربرج ، وهو أحد خبراء الزراعة فى فلسطين ، وعالم الهندسة جنيينج ، وبراملى من السودان الذى أوصى به كرومر .

... وعلى أساس هذه الانجازات يتحتم على اللورد روتشيلد ان يعطى جمعية الاستعمار اليهودية مليونين أو ثلاثة ملايين جنيه على الاقل للشركة اليهودية الشرقية ، والباقى يجمع بالاكتتاب .

ويكتب هرتزل (ص ١٣٨٢ من المذكرات) انه كتب الى لانسدون : وزير خارجية بريطانية قائلا :

ـ ولما كانت بعض الأمور تحتاج الى شرح شخصى ، فاننى آمل زيارة فخامتكم فى لندن فى عيد رأس السنة لأجيب على الاعتراضات حول «حقوق الاستعمار » وقد خطر ببالى ليلة أمس الامر التالى : « ربما استطعنا أن نروى الصحراء من النيل . مثلا خط أنابيب بسيط ، ولكن هذا مستحيل بسبب قناة السويس ، ان الماء يجب أن يضخ من فوق علو السفن ، أو يضخ من تحت على عمق كبير » .

« هذه الطريقة الثانية تبدو أسهل بكثير . وقد يكلف هـذا الضـخ مليونا . ولكن ليس هذا بكثير على مثل هذا المشروع . أو يؤخذ الطمى ، على سفن ، ويوضع فى العريش ، أو تبنى سفن خاصة يصفى فيها الطمى ، فيرسب فى اعماقها ويرسل الى العريش ، وقد تكون هناك وسائل أخرى لتحقيق ذلك ، وسأعهد بهذا الامر ، وبأمر الفوسفات الى مرمورك وواربرج (اللذين قبلا المهمة) وسيكون عملها سريا » .

فاذا جاءت سنة ١٩٠٣ ، كان هرتزل لا يزال فى لندن ، فيتقابل فى لندن مع روتشيلد فى ١٣ يناير ١٩٠٣ ليقول :

ـ وشرحت له كل شىء على مدى ثلاثة أرباع الساعة ، كما أعطيته

الرسائل المتبادلة بيني وبين الحكومة ليقراها وقد اهتم بها ، كذلك اخبرته عما أريد منه : وهو ان يؤمن لى ثلاثة ملايين جنيه من جمعية الاستعمار اليهودية للشركة اليهودية الشرقية » .

وتستمر الدبلوماسية « السرية » لتحقيق المشروع ، ونقول سرية باعتراف هرتزل بنفسه ، فهو لا يسمح لنفسه فى لقائه بروتشيلد فى المطعم ان ينطق باسم سيناء ويتبادل معه الحديث مكتوبا على الورق ، وهو يبلغ كذلك لانسدون بأن العمل سيبقى سريا تماما ، وهو يستخدم فى تلك الاتصالات ما بين سبتمبر ١٩٠٢ ويناير ١٩٠٣ شبكة من مندوبيه ما بين الاستانة والقاهرة ولندن ، وكل ذلك يتم فى الخفاء ، فيقول فى ٢٣ أغسطس ١٩٠٣ لمندوبه فى تركيا (ص ١٣٥٢) :

ــ سأخبرك ، وأرجو ان تحفظ هذا سرا بيننا ، عما أتوقع أن أعمله، سأحاول الحصول على المقاطعات اللازمة لا ستيطاننا فى احدى الممتلكات للبريطانية كان هذا هو فى رحلتى الأخيرة الى لندن .

وهو يؤجل زيارته الى مصر ــ بناء على نصيحة مندوبه فى القاهرة حتى يحصل على الاتفاق من حكومة لندن أولا ، وينتهى هرتزل فى الفصل ١٣ من يومياته بقوله :

« ... عقدت اتفاقا مع المهندس كسلر ليكون رئيسا للحملة ولكسلر الخبرة والهدوء اللازمان للمهمة . اما أوسكار سرمورك فصاحب مزاج فنى وقد سبب خلال بضعة أيام بعض المشاكل فى برلين بسبب تهوره وتسرعه ، ستبدأ الحملة رحلتها من تريستا فى التاسع والعشرين .

سأقوم بتهيئة كل ما يلزم . وأنا الآن ادرس خرائط البلد .....

ويقول هرتزل بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٠٣ ، (ص ١٣٩٧ من المذكرات) ..

ــ « أعطيت اليوم تعليمات الى كسلر ، عليه أن يقدم لى تقريرا عن امكانية الاستيطان فى البلاد حتى لسير فى العمل للحصول على الميثاق والمال

وكذلك اسررت اليه انى أرغب فى الحصول على قبرص وحيفا مع مينائها ، واننى أنوى بدء الاستعمار بأفضل الاراضى .

أعطيت تعليمات لجرينبرج بخصوص الميثاق — يجب أن يكون موجزا ومرنا . عليه ان نأخذ كل ما يمكن الحصول عليه من الحكومة المصرية ، ولكن ليطلب أكثر عما يمكنه طلبه ، لان نوعية الامتياز تقرر كمية المال الذى يستثمر وامكانيات النجاح ...

مازال اعمل فى تنظيم الرحلة ..

جاءنى اليوم صباحا كسلر وكولونيل جولد سميد وممثل عن شركة

كوك . أكملت الترتيبات اللازمة حتى الاسماعيلية ، بعدها يتولى كسلر الأمور ، أعطيتهم فقط .. الترتيبات الاولية .

ستسير الحملة من الاسماعيلية (وليس بور سعيد) مع طريق القوافل الى بحيرة سبريوبنا (البردويل) ثم الى الجانب الشرقى من البلاد ، وهناك تقيم أول معسكر لها .

سيحضر كولونيل جولد سميد خرائط جيده من وزارة الحربيه وسيكون على العموم مفيدا لنا جدا « ص ١٣٩٤ » .

« عملت أمس حتى المساء مع أعضاء بعثتى .. وأن رزانة كسلر تجعلنى احب أن يكون رئيسا (للبعثة) أما كولونيل جولد سميد ، فانه يفيدنا بعمل خرائط الموظفين والبحرية التى يقوم بها الآن ، د. ج. هـ. ستفنس المهندس الزراعى ، بثبات الرجل الانجليزى ، يعمل بحماس ، تحدثنا أول الامر عن مسألة الميناء فى بحيرة سيربونيا (البردويل) يريد أن يمد قناة المياه العذبة الذى تجرى من النيل ، الى قنال السويس . هذه القناة كانت قد أقيمت من أجل العمال أيام دى ليسبس (ص ١٣٩٧) .

وقد نظم وخطط هرتزل لرحلة البعثة فى دقة وسرية كاملتين ويقول :

ـ كسلر ـ « جولدسميد ولورينت (الذى قابلته فى باريس وكسبته الى صفنا) وربما ستقنسن أيضا يصلون الاسكندرية يوم ٢ فبراير ، وهناك ينضم اليهم براملى الذى لم أسمع عنه بعد ، ويوف الذى سيهتم بالجمال والعتاد وغيرها .. فى هذا الوقت يذهب كسلر وبراملى الى القاهرة اذا كان هناك ما يجب عمله . ويذهب اوسكار أيضا الى القاهرة ليتفرج على الأساليب الهندسية المصرية الجديدة لعل رؤية القناطر القوطية العالية تبعث فيه الحماس .

الاربعاء ٢ فبراير ، يجتمع كسلر وبراملى مع جرنبرج فى بور سعيد يتعرف جرينبرج ببراملى اثناء الرحلة الى الاسماعيلية الخميس ٥ فبراير ، تبدا الرحلة بالقوافل . من الاسماعيلية أو من القنطرة فى اتجاه بحيرة سبريونيا التى يتم التعرف . على ما حولها أول الأمر حتى يدرس أمر صلاح البحيرة بعد تجفيفها لتكون ميناء ومكانا للبناء .

ويذهب جرينبرج الى القاهرة ليتباحث فى أمر الامتياز .

تقوم البعثة بارسال جميع التقارير الى جرينبرج الذى يقوم هو بدوره، تارسال هذه التقارير لى اما تليفونيا أو عن طريق الخطابات .

أما مهمة ستيفنس فهى دراسة الميناء ، والقنوات من النيل ، وحفر الآبار واقامة السدود .. أى جميع المسائل المائية ومهمة لورينت هى المسألة الزراعية ... »

ويقول ص ١٤٠٠ :

مهمة جولد سميد أكثر رونقا . لكنه سيظل فى التعامل مع السلطات الانجليزية واذا لزم الأمر يهتم بأمور الحماية العسكرية وكمسئول عسكرى عليه أن يتولى قيادة التحركات التى بتم الاتفاق عليها فى مجلس البعثة برئاسة كسلر .

ويقوم اوسكار مرمورك بوظيفة السكرتير العام الى جانب اختصاصه

فى مسألة الاستيطان والبيوت وبناء الطرق وتخطيط المدن ... الخ .

ودكتور يوف (اذا ذهب معهم) عليه أن يدرس الطقس والامـور الصحية ويقدم تقريرا عنها :

براملى : يقوم بجولات الاستكشاف فى البلاد ...

كسلر هو الرئيس وأمين الصندوق وخبير التربة لقد طلبت من وارنبرج أن يبرق الى بلانكنهورن أن يبعث الينا بتقرير مختصر (وسندفع) عـن الأماكن الصالحة لاقامة المخيمات ، وآمل أن أجد هذا التقـرير فى انتظارى فى فيينا لاعطيه لكسلر .

ثلاث خرائط قيد التحضير . واحدة يأخذها أفراد البعثة معهم .. وواحدة تبقى مع جرنبرج فى القاهرة والثالثة تبقى معى ..

كنت أود أن أقترح تقسيم الخريطة الى مربعات حتى تكون التقـارير عن المربع الذى تكون فيه البعثـة فى الوقت المعين .. ولكن الكولونيل جولد سميد كان قد أعد شيئا شبيها أو بالاحرى أفضل للجيش الانجليزى ، أوراق شفافة ذات مربعات ، يمكن الصاقها على الخريطة ، والمربعـات مرقمة بحروف وستستخدم ذلك .

أظننى لم أنس شيئا لا كتب القوانين ولا التأمينات على حيـاه المسافرين ولا الصور التى عليهم أن يستعملوها فى خيامهم لتسلية البدو فى الصحراء كما أنوى شراء هدايا للبدو غدا فى فينا .

وقد أرسل هرتزل رسالة الى كسلر رئيس البعثة ، نكتشف فيها مدى السلطة التى كان يتمتع بها ، فيقول :

بموجب السلطة التى لى بصفتى رئيس اللجنـة التنفيذية فى الحـركة الصهيونية وباسم لجنـة العمل الداخليـة الصهيونية فى فينا وبالنيابة عنها أعينك رئيسا للحملة التى أوكلناها بدراسة امكانية الاسـتيطان فى

القسم الشمالى من شبه جزيرة سيناء . يرجى منك اتباع التعليمات ، حسبما تسمح الظروف التى لا يمكن التنبؤ بها بالتفصيل الآن ..ان مهمتك هى أن تبحث وتقرر بمساعدة رجال الحملة ، الفرص والامكانيات التى تسمح باستعمال الأرياف والمدن فى المنطقة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط بين قنال السويس والحدود التركية وكذلك على الساحل.

تبدأ الرحلة من الاسماعيلية القنطرة الى بحيرة سبريونيا (البردويل) وفيما بعد حسب التقارير اليومية تسيرون فى التقدم الى الهدف الذى يجب أن يكون منطقة مستودعات البترول قرب السويس (ولكن غير مقيدين بهذا الهدف) .

ستكون أنت رئيسا للجلسات وتدلى بصوتك فى الآخر فيكون صوتك الذى يرجح فى حالة تساوى الاصوات ويكون الدكتور يوف كاتب وقائع الجلسات والى جانب سجلات الاعمال اليومية ــ يجب كتابة سجلات نقارير نتائج هذه الاعمال ويحسن الى جانب هذا أن يقوم كل عضو بكتابة يومياته (تشترون دفاتر اليوميات وأقلام الحبر من الاسكندرية) وتبعثون بمختصرات منها فى البريد الذى يجب أن يرسل الى باستمرار . ويجب أن تصلنى النشرات الاخبارية (نسخ منها) مطولة مع كل بريد .

ويقول هرتزل (١٤٠٢) :

أما هؤلاء الذين لم يتعهدوا لى فى لندن أو باريس الا ينشروا أى خبر عن الحملة اما بكتاباتهم هم أنفسهم . أو بمقابلة معهم . فاننى أطلب منهم أن يقدموا لى تعهدهم الآن خطيا قبل السفر ، والافضل ان يكون التعهد بصيغة موحدة يوقعها الجميع ونص التعهد كما يلى :

« نحن الموقعون أدناه أعضاء الحملة المنظمة تحت اشراف الحركة الصهيونية لدراسة امكانيات استيطان شبه جزيرة سيناء . نتعهد هنا ونقسم بشرفنا ألا ننشر أى شيء عن الحملة عن طريق كتابتنا ، ولا عن طريق الخطب ، أو المقابلات الا اذا سمح رئيس لجنة العمل » .

وهكذا أعد هرتزل بنفسه الخرائط والتعليمات ، والاتصالات . ولم ينس الأبحـــاث الجيولوجية السـابقة عن ســيناء ، أو فكرة توصيل مياه النيل أثناء حفر القنـــاة ، كما لم ينس أن يصدر تعليماته الى أعضـــاء البعثة ، بأن يكتبوا له أو أن يبرقوا بانتظـــام . وتم كل شيء فى الكتمان المطلق ، رغم الصراع العنيف بين الخديوى وكرومر ، وبين الحركة الوطنية بقيادة مصطفى كامل والانجليز ، وبين الفرنسيين والانجليز ، ورغم أن أحداثا أقل أهميـــة حظيت انعكاسا فى جريدتى المؤيـــد واللواء .

لقد كانت مدافع الصهيونية مجهزة تماما حتى بـسكاتم الاصوات ! .

هوامش الفصـــل الثالث

(١) ص ٢٧٢ من كتاب أبا ايبان ، المترجم الى الفرنسية ١٩٦٩

(٢) حياة تشمبرلين ، لجوليان اموى ، ص ٢٥٦ ، طبعة لندن ١٩٥١

The life of Chamberlain, by Julien Amery, p. 256.

(٣) المـــاركيز لانسدون ، وزير خارجيـــة بريطانيا ، اسمه الاصلى هنرى شاركز كيت بيتى فترمورس (١٨٤٥ — ١٩٢٧) ، كان حاكما لكندا ١٨٨٣ — ١٨٨٨ ، ثم نائبا للملكة فى الهند من ١٨٨٨ — ١٨٩٣ ، ووزيرا للحربية ١٨٩٥ — ١٩٠٠ ، ثم وزير خارجيـــة بريطانيا حتى عام ١٩٠٩ .

(٤) لودفيج بول بلانكهتـــــر نورن (١٨٦١ — ١٩٤٧) ، جيـــــولوجى ألمـــانى ، درس جيولوجية مصر ما بين ١٨٩٧ و ١٨٩٩ ، وألف كتابا عن ذلك .

الفصـــل الرابـــع

الامتيـــاز

برقية وزارة الخارجيـــة البريطانية للاستعانة بخبير بريطانى فى سيناء . مندوب هرتزل يكسب اللورد كرومر وبطرس باشا غالى . النص الكامل لمشروع توطين اليهـــود فى ســـيناء عام ١٩٠٣ . هرتزل يقترح امتيـــازا لـــدة ٩٩ عاما ، على مرحلتين . نص مشروع الامتياز ونص تقرير البعثة الصهيونية ٢٦ مارس ١٩٠٣ . البعثة تخفى حقيقة عدد سكان سيناء . هرتزل يبشر بنجاح المشروع فى ١٨ مارس ١٩٠٣

اعد كل شيء بالتفصيل الدقيـــق ، وفى سرية تامة ، وقد طلب هرتزل من الجيولوجى الالمـــانى بلانكينهورن تقـــريرا وأعد الخرائط العســـكرية

لسيناء ، واستعان بكتب براملى ، البريطـــانى الذى تخصص فى استكشاف ربوع ســـيناء وصـــحراء التيه ، وقـــام برحلة استكشافية عبر ســـيناء قبل الاحتـــلال البريطانى بسنوات قليلة جـــدا وأصدر كتابا عام ١٨٧١ بعنوان(١) : « صحراء التيه » « رحلات على الاقدام فى متاهات الاربعين عاما » وقد نشرته جامعة كامبردج .

وأرسلت الخارجيـــة البريطانية الى اللورد كرومر تطلب اعارة براملى

لمرافقـــة البعثة الصهيونية ، وهذا نص البرقية :

وزارة الخارجيـــة

٢٠ يناير ١٩٠٣
٤ بعد الظهر

برقيتكم رقم ١ بتاريخ ٢ يناير وبرقيتى رقم ٨ بتاريخ ٩ يناير طبقا للخطة الحالية تغادر اللجنة تريستا فى ٢ فبراير .

هرتزل يقتـــرح أن يطلب من حـــكومة السودان اعارة خـــدمات براملى ويقترح أن تسهل له الاتصالات المبـــاشرة مع الاخير للاتفـــاق على التفاصيل هل هو مستعد للانضمام الى اللجنـــة عند وصولهـــا أم أن هناك أى أســـباب لتأجيل السفر ؟

ولكن براملى يعتذر لارتباطه بالعمل فى السودان ، وتسافر اللجنـــة الصهيونية برئاسة ليوبلد كسلر ، وعضوية والبرت جولد سميد وجـــورج ستنفس ، و د . س.سوسكين ودكتور هيليل يوف ، واووسكار مرمورك ، وهم الذين وقعوا على التقرير النهـــائى للبعثة بتـــاريخ ٢٢ مارس ١٩٠٣ . بمدينة الاسماعيلية .

وجدير هنا أن نبين من هى الشخصيات التى تكونت منهـا البعثـة الصهيونية ، لأن ليوبولد كسلر (١٨٦٤ ـ ١٩٤٤) هو مهندس يهودى من جنوب أفريقيـا ، ترأس الجمعية الصهيونية فى الترنسفال ما بين عام ١٨٩٩ وعام ١٩٠١ وقد انتقـل الى لنـدن عام ١٩٠١ ، وبعـد عودته من سـيناء ، أشرف على جريـدة جويش كرونيكل .

أما البرت جولد سميد أو جولد سميث (١٨٤٦ ـ ١٩٠٤) فهـو كولونيـل ولد من يهودى تنصر ، واعتنـق اليهودية من جديد ، وهـو الذى أدار مستعمرات البارون دى هيرش فى الارجنتين بين عامى ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣ ، وقد أسس فرقة الشـبان اليهود ، عام ١٨٩٥ وترأس جمعية أحبـاء صهيون البريطانية ، ونظمها على أسس عسكرية. أما جورج ستفنسن ، فهو مهندس بريطانى وقد عمـل فى بنـاء الطرق والكبارى والموانى فى الهند وانجلترا وغرب أفريقيـا وجزر الهنـد الغربية ما بين ١٨٧٩ و ١٨٩٧ . وعمل س.سوسكين . وهو مهندس زراعى بادارة احدى المسـتعمرات الصـهيونية فى فلسطين . والدكتـور هيليل يوف رئيس مستشفى يافا الاسرائيلى واخيرا اوسكار مرمورك وهو مهندس من البولتكنيك النمساوى فى فيينا وعضو لجنة العمل الداخلية الصهيونية ومن زعماء صهيونى فيينا .

واذا كان هرتزل قد اعد للبعثـة كل معداتهـا من اتصالات وخرائط. فان جرينبرج مندوبه كان قـد قـام بزيارة مصر بنـاء على رغبة هرتزل. وكان يحمل رسالة المـاركيز لانسدون ، وتوصية تشمبرلين .

وقد سـجل هرتزل فى ١٣ نوفمبر ١٩٠٢ عبـارة هامة جـاءت كالتـالى :

« عاد جرينبرج من القـاهرة حيث أحرز نجاحا تماما . لقـد كسب اللورد كرومر الى صفنا كما كسب بطرس باشا غالى . وأهم من ذلك أنه استمال بعض كبـار الموظفين البريطانيين هناك كالمستر بويل والكابتن هنتر .

ويقصد هرتزل « هارى بويل » المستشار الشرقى للسفارة البريطانية والكابتن هنتر الذى أصبح فيما بعد هنتر باشا .

وقد وصلت البعثة الى مصر فى أخر يناير .

وننقل هنا من تقريرها المؤرخ ٢٦ مارس ١٩٠٣ بعض الفقـرات الهـامة ، ويقـع التقرير فى ثمانية صفحات وقد جـاء فى صدره ما يلى :

تقرير عن البعثة المعينة للبحث فى الامكانية العملية لاقامة مستعمرات من البـلاد الاوربية وذلك فى الاراضى الخاضعة للاختصاص المصرى ، والواقعـة شرقي القناة والخليج .

١ ــ وقد بدأت البعثة استكشافاتها فى ١١ فبراير ١٩٠٣ بـدأ من القنطرة وانتهت ، ٢٥ مارس ، حيث وصلت الى السويس وقطعت ٥٩٨ ميـلا وتم اكتشاف البـلاد سيرا على الاقـدام وعلى ظهور الابل . لأن ندرة الميـاه تعرض الخيول للخطر .

وكان معظم الطريق بعيدا عن الطرق المعبدة ومن غير المعروفـة الا قليـلا وذلك أن الخرائط الحـالية خاطئـة وغير كاملة « فى بعض النواحى » .

٢ ــ وقال التقـرير :

يمكن تقسيم الارض المكتشفة الى خمس مناطق :

(ا) سـهل الفرما .

(ب) المنطقة الرملية جنـوب بحيرة البردويل ، والواقعـة بين وادى الفرما ووادى العريش .

(جـ) وادى العريش وملحقاته وكذلك صحراء التيه .

(د) سلسلة جبال التيه ومناطق مساقط المياه .

(هـ) الجبال والأودية والساحل الواقع بين المنطقة السابقة والسويس ويمكن تلخيص ملاحظات اللجنة تحت هذه البنود .

أ ــ السـكان :

موزعون جدا .. فى المنطقة (ا) فرع وادى الفرما ، لم تقـابل أى مغلوق بعد مغادرة القنطرة وفى المنطقة (ب) ، البدو القليلون الموجودون

أغلبهم من النســـاء والاطفـــال ويعيشـون فى خيـــام بدوية وسط تلال رملية ومستنقعات وبعض الصيادين فىفم البردويل أو مدخلالبحيرة وفى المنطقة(ج) العريش مقر المدير أو الحـــاكم . وهى المدينـــة الوحيـــدة وعدد ســـكانها طبقا لأقوال المدير ..٤٠٠ نسمة ، ويعتقد أن عدد سكان المنطقة بأكملها، بما فيهـــا شبه جزيرة سيناء ، يبلغون ١٦٠٠٠ نسمة .

وباستثناء القرية الواقعـــة مقـــابل ضفة الوادى ومدينة العريش ، فالقرية الأخرى أو البيوت التى رأتهـــا اللجنـــة تقـــع فى النخل وسكانها ١٠٠ نسمة وأغلبهم من حراس القلعة وعائلاتهم .. وقد شوهد عدد قليل من البدو فى هذه المنطقة وهم غالبـــا من النســـاء والاطفـــال . وتنطبق نفس الملاحظة على المنطقة « د » و « هـ » ونرجـــع قلة **الذكور** حســـب ما عرفنا الى قلة ســـقوط المطـــر هـــذا الموسم مما اضطر الرجـــال الى البحث عن مراعى ابلهم ومواشيهم فى مناطق أفضل **حظا فى فلسطين ومصر** .

ب ــ الحياة الحيوانية :

الحيوانات قليلة فى البـــلاد بشـــكل عام .. ويبدو وادى الفرما خاليا من الحيـــوانات تقريبـــا .. والحيوانات المعتادة فى المناطق الاخرى هى الابل والخراف والمعيز ..

ويتعرض التقرير بعد ذلك للحيـــاة النباتية وطبيعة الارض . والمعادن والطاقة والمياه والاحوال الصحية ، والجو .

٤ ــ وتنتهى تقرير اللجنة بأن أبحاتها انتهت الى أن الظروف القائمة تجعل المنطقة غير صالحة بشـــكل ما لتوطن الاوربيين ولكن فيما شاهدته اللجنة ، ومن تجـــارب أعضائها ، ويستطيعون أن يؤكدوا بثقة أنه اذا ما توفر المـــاء ، فان أحوال التربة ، والصحة والجو ، يمكن فى المنطقـــة الصحراوية أن يستوعب عددا كبيرا من السكان .

وباختصار فان المسألة كلها هى توفير الميـــاه مما يســـتوجب نفقات كبيرة ..

ويقول التقرير :

١ ــ ان المنطقة الأولى (أ) فى وادى الفرما ، يمكن ازالة ملوحة التربة ، واعدادها للزراعة ، والسبيل الوحيد لهذا الهدف ، وما بعد ذلك من أجل الرى هو توصيل مياه النيل عن طريق القنوات والصحارات الكبيرة التى تقام تحت قناة السويس .

٢ ــ والمنطقة الثانية (ب) ، بحفر الآبار فيها .

٣ ــ والمنطقة الثالثة (جـ) باستغلال المياه الجوفية بالاضافة الى بناء الخزانات التى تحفظ مياه الانهار المنحدرة من الجبال قبل أن تصب فى البحر الابيض .

وتشير اللجنة الى المشكلة التالية بعد حل مشكلة المياه وهى تحسين وسائل المواصلات .... وتشير بعد تلك المرحلة بانشاء السكك الحديدية تبعا لدرجة تطور البلاد .

وبالنسبة للمنطقة (ا) ، (ب) يمكن العناية باختيار الأرض ولا يصعب انتقاء الطريق بأرخص النفقات .

وينتقل التقرير بعد ذلك الى المرحلة التالية : بعد المياه والمواصلات والطرق الى الزراعة ثم اقامة الصناعات المناسبة .

وترى اللجنة استخلاصا من مستشاريها الزراعيين الفنيين ، ومن خبرات أعضائها فى مصر والهند وجنوب أفريقيا ... ، ومما شاهدوه مزروعا فى ظروف بدائية انه يمكن زراعة المحصولات التالية : القمح والذرة والشعير والبقول كالعدس والفول والفاصوليا والفاكهة كالبلح والتين والبرتقال والليمون والزيتون والخروب والخضروات وبعض الاشجار الخشبية كالكافور والجازورينا وغيرها وكذلك المزروعات اللازمة للصناعات كالقصب والقطن والسودانى وبالتالى يمكن انشاء صناعات مثل تجفيف الفاكهة والزيوت والنبيذ والصمغ العربى ... الخ .

٩ — وقد أوصت اللجنة بنـــاء على ما سبق :

اولا : بأن تكون حدود المناطق المستعمرة كالتالى : شاطىء البحـــر الابيض شمالا ، والحـــدود التركية شرقا والحدود الجنوبية مساقط مياه وادى العريش ومرتفعـــات التيـــه ، أى خط عرض ٢٩ تقريبـــا وتكون الحدود الغربيه هى قناة السويس والخليج ..

كما أوصت اللجنة فى النهـــاية تنفيذ المشروع على أسس تجـــارية بحتة وضرورة الحصـــول من الحـــكومة المصرية على السلطات التى تمكن الشركة من تنفيذ مشروعات الرى اللازمة ومد الخطوط الحديدية واقـــامة المرافـــق ، ومحطات دراسة الجو ، واقامة السدود وتخزين المياه .

وقد وقـــع على التقرير والذى لخصنا أهم نقاطه — أعضاء البعثـــة الستة ، وهم كسلر ، وجولدسمد وستفنس وسوسكين،ويوف، ومرمورك وبقراءة هذا التقرير — بشىء من الامعان — نستطيع أن نلاحظ :

١ — ان اللجنة اخفت أن المشروع لتوطيد اليهود ، وتحدثت عن توطيد مهاجرين من الدول الاوربية على الرغم من أن المشروع كله — كمـــا بينـــا — من أوراق هرتزل وبرقيـــات وزارة الخارجيـــة البريطـــانية ، كان لتوطين اليهود وتوطيدهم .

٢ — ان اللجنـــة قللت جدا من عدد السكان فى ســـيناء ، ولا يخفى أن ذلك كان دافعه هو ازالة اعتراضات الحـــكومة البريطانية أو مخاوفها أو أية اعتراضات اخرى .

٣ — ان أوراق هرتزل تثبت أن هنـــاك تقـــارير أخرى كان أعضاء اللجنة يرفعونها اليه ، ولم نعثر على أحد منها حتى الآن .

ولكن الخطير هو أن اللجنة قد حددت المنطقة التى تطالب بهـــا ، وهى تصل الى خط عرض ٢٩ تقريبـــا اى ما يوازى ابو زنيمة ، وهـــو يكشف عن فداحـــة أطماع الصهيونية فى ســـيناء ، وفى ميـــاه النيـــل ، بل يكذب ما اشتهر فى الكتب النـــادرة التى تناولت هذا المشروع معدانه مجرد توطين اليهود فى العريش .

ومشروع الاتفـــاقية أخطـــر

وبناء على هذا التقرير الفنى ، تقدم تيودور هرتزل بمشروع الاتفاقية التى أراد بهـــا التعاقد مع الحـــكومة المصرية للحصول على امتيـــاز الاستيطان فى شبه جزيرة ســـيناء ، ولخطورة المشروع ولانه يكشف أن هرتزل كان يود الحصـــول على تعـــاقد لمـــدة ٩٩ سنة قابلة للتجـــديد بنفس الشروط . وانه نص أيضـــا على منـــع الحـــكومة المصريـــة من التصرف فى بقيـــة سيناء تمهيدا للتعاقد عليها بنفس الشروط ، فاننـــا نترجم هذا المشروع بالنص ، وهو كما يلى :

تم الاتفاق بين :

١ ــ الحكومة المصرية ... طرف أول

٢ ــ والدكتور تيودور هرتزل نيـــابة عن شركة تحت الانشاء .. طرف ثان على ما يلى :

البنـــد الأول :

تمنح الحكومة المصرية الدكتور هرتزل أو الشركة التى يؤسسها الحق فى احتلال الأرض الكائنة شرقى قناة السويس البحرية وحق استعمارها وتتكون من ... كيلو متر مربع..ويحدها شمالا البحر الابيض المتوسط .. وشرقا الحدود العثمانية التى تكون معترفا بهـــا بغير منـــازع .. وجنوبا الخط الموازى لخط عرض ٢٩ ..

البنـــد الثـــانى :

يمنح الامتياز لمـــدة ٩٩ سنة وللحكومة الحـــق فى الغـــائه بعـــد اخطار مدته ستة شهور ، اذا لم تنفذ الشروط الاخرى الواردة فى عقـــد الامتيـــاز .

البنـــد الثالث :

للشركة الحق فى اســـــتغلال الأراضى الممنـــوحة ، كشىء تملكـــه as a thing belonging to it باستثناء حقوق أطراف معينة ،

كامتيازات التعدين وغيرها التى تكون الحكومة المصرية قد منحتها قبل هذا التاريخ .

البند الرابع :

يصبح المستعمرون القادمون الى المنطقة الممنوحة عن طريق الشركة من الرعايا المحليين وعلى كل من لا يتمتع بالرعوية العثمانية .

أن يقرر كتابة وبصفة قاطعة قبوله اختصاص السلطات المحلية الادارية والقضائية ، وعليه أن يرفق مع هذا الاقرار شهادة من سلطات دولته الاصلية بشرعيته اكتسابه الجنسية العثمانية ، وفى كافة الاحوال الا تعتبره هذه السلطات رعية من رعاياها أو شخصا يقع تحت حمايتها .

البند الخامس :

تخضع الأراضى موضع الامتياز وكذلك المستعمرون فى كل الوجوه للقوانين واللوائح التى ستحكم الاراضى .

وكذلك السلطات « الاهلية » وذلك فيما عدا الاحوال الشخصية التى تقع فى اختصاص السلطات الدينية التى يقيمها المستعمرون وذلك بنفس الشروط التى تحصل عليها الطوائف غير الاسلامية ولابد من اعتراف الحكومة مسبقا بهذه السلطات الدينية .

البند السادس :

تعفى الأراضى موضوع الامتياز باعتبارها غير مزروعة مطلقا ، من أية ضريبة لمدة خمس سنوات وبعد ذلك تدفع ايجارا يحل محل الضرائب والرسوم عن الارض أو المستعمرين ويعادل هذا المبلغ ١/٢٠ من صافى دخل المستعمرة .

البند السابع :

يصرح للشركة بانشاء الموانى فى الأرض الممنوحة وللشركة اقامة

كافة الخطوط ، ووسائل المواصلات كالطرق والسكك الحديدية ، وخطوط البرق والهاتف .. الخ . كما تقوم بكافة المشروعات أيا كان نوعها .

البند الثــامن :

للشركة الحق فى تحصيل رسوم الموانىء ، والمنائر ، ويستثنى من ذلك رسم دخول الموانىء للسفن التــابعة للحكومة المصرية .

البند التاسع :

لتحديد الدخول المذكورة آنفا فى البند السادس والتى ستكون أساسا لتحديد دخل الحكومة ، تمسك الشركة دفاتر منتظمة يمكن أن تخضع لرقابة الحــكومة المصرية ..

وكل خلاف على تقدير الايرادات يعرض على لجنة ثلاثيــة تعين الحكومة المصرية عضوا فيهــا ، والشركة عضوا ثانيا ويترأسها العضو الذى تعينه الحكومة البريطانية .

البنــد العــاشر :

تحرص الحكومة بقــدر ما تستطيع على تعيين القضــاة والموظفين والمستخدمين وفقا لرغبات المستعمرين ومصالحهم .

وعندما يسمح تطور الاستعمار colonisation تأخذ الحكومة فى اعتبارها كل مطلب لانشاء بلديات ، طالمــا أنهــا لا تتعــارض مع المبادىء السابقة .

البند الحادى عشر :

لا تمنح الحكومة المصرية أى امتياز على الاراضى المتنازل عنهــا طوال مدة المنحة

البند الثــانى عشر :

بعد انتهــاء مدة الامتياز ، للشركة الحق فى تجديده لــمدة مماثلة ، وذلك بأن تدفــع المستحقات المقررة ، على أساس ١/٢٠ من متوسط ايراد الخمس عشر سنة الأخيرة .

البند الثالث عشر :

تتعهد الحكومة المصرية بالامتناع من الآن عن منح أى امتياز لمدة خمس سنوات عن الجزء المتبقى من شبه الجزيرة ، وغير الواقع فى حدود التعاقد الحالى ، ويجوز للشركة الحصول على امتياز عن بقية شبه الجزيرة على أساس الاتفاقية الحالية .

البند الرابع عشر :

تكون مسألة توفير مياه النيه لشبه الجزيرة موضع اتفاق لاحق .

... ...

مفاجأة

ومن الواضح أن هرتزل بقى فى تريستا ، ينتظر التقارير المتتابعة ، وكان يلاحق انتقال البعثة طبقا للمربعات التى اتفق عليها مع رجال بعثته . ويبدو أن أعضاء البعثة لم يخذلوه فى تنفيذ تعليماته بدقة . وحتى قبل أن يعودوا الى القنطرة لكتابة تقريرهم النهائى ويوقعونه ، كانوا يخطرونه بالتفاصيل . وفى ١٨ مارس ١٩٠٣ ، يكتب هرتزل الى روتشيلد يطلب منه عقد اجتماع فى باريس للرجال الذين يديرون « صندوق هيرش » . ويقول ان ثلاثة من أعضاء اللجنة قد عادوا ، بينما خمسة مازالوا يمسكون المنطقة الجبلية الجنوبية بسيناء . ويقول هرتزل فى خطابه(٢) لروتشيلد : ولكن حتى النتائج التى تحت أيدينا فى التقارير والمذكرات تبين أن المنطقة التى نفكر فيها مناسبة لاقامة مستعمرة كبيرة . وبالاضافة الى هذا فقد تلقينا تأكيدا مبدئيا مكتوبا من الحكومة المصرية بمنح المستعمرة المرغوب فيها للحركة اليهودية من ناحية المبدأ .

ولكن هرتزل لم يطق أن يبقى من بعيد يتابع تحركات البعثة كما يسجل فى مذكراته (التى لم تنشر فى حينها) مخاوفه من مندوبه جرينبرج الذى يريد أن يتقرب من روتشيلد على حسابه ، وقد يفوز بالصفقة والزعامة والصداقة معا . فيقرر هرتزل أن يبحر من تريستا الى الاسكندرية فى طريقه لمقابلة كرومر وبطرس غالى . كما يقرر أن يزيح جرينبرج من رئاسة البعثة .

هوامش الفصل الرابع

Palmer, E. H.
Central Asia Journal
The Desert of the Exodus Journeys on foot in the will derness of the forty years wandering, Cambridge, 1871.

(٢) انظر نص خطاب هرمزل لرونشيلد ، في
HERZL year book, Vol. 1, p. 114.

والمذكرات الكاملة الصفحات ١٤١٧ و ١٤٣٠ و ١٤٢٨ و ١٤٣٧) .

الفصـــل الخامس

هرتزل فى القاهرة

القاهرة تحت الحكم البريطانى . كرومر وبطرس غالى. هرتزل لا يصبر ويصل للقاهرة ويقيم له شبرد . تفاصـــيل حواره مع لورد كرومر وبطرس باشا غالى . هرتزل ينحى جرينبرج . غطرسة كرومر ونفوذ روتشيلد . مناقشات فنية حول مياه النيل — وكمياتها . خبراء الرى يرفضـــون المشروع . لماذا ؟

خزان اسوان انتهى عام ١٩٠٢ هل هى المناقشة بين آل بارنج وآل روتشيلد ؟ بريطانيا تستعد للحـــرب العـــالمية الاولى . مشروع للمواساة يمنح الصهيونية ٦٠ ألف فدان فى كوم أمبـــو ٧ ديســـمبر ١٩٠٣ . سير أرنست كاســـيل رسوارس مؤسسا البنك الاهلى يحصلان على الاتفاقية.

صعد القاهريون من النهر الى التل ، ومن النيل الى المقطم ثم هبطوا اليه خلال الف عام . فالقاهرة ست مدن أو سبعة على الاقل . وهى عدة مدن متلاحقة متلاصقة . وفى البدء كانت الفسطاط ، وقد اقيمت على عجل، ولاسباب عسكرية فى الاغلب ، وان كان الفتح العربى قد توجها بجامع منيف هو جامع عمرو . ولم تكد تستقر الامور حتى ابتعد القاهريون عن النيل ليطلوا عليه ، واختاروا لاسباب صحية التلال ، ومهما تل بنى يشكر الذى أقيمت فوقه القاهرة الطولونية . ومنذ ذلك الحين ظلت القاهرة الحاكمة متمسكة بهذا الاكتشاف فشيدت القلعة والقصر فى حضن جبل المقطم بعيدا عن البرك والفيضان وسواء كانت القاهرة فاطمية أو أيوبية فان القلعة كانت مقر الحكم ، وكان الحى هو حى الخليفه ، وظل ذلك التقليد حتى محمد على . وكان اسماعيل هو الذى هبط الى قصر عابدين . وانشأ عشرات القصور من القبة الى قصر الجزيرة الوسطى على النيل ، وشهد مغانى أوجينى فى بداية حكمه واغتيال اسماعيل صديق المفتش أخيه فى الرضاعة ووزير ماليته . وكان الاغتيال باوامر خديوية (١) وقد شهدت الحلمية الجديدة قصر عباس حلمى الثانى . وكان اسماعيل قد بدأ استخدام هوسمان عظيم المهندسين الذين شقوا الشانزلريه وميدان الاتوال بباريس. وبنفس الطريقة كان شارع محمد على وعبد العزيز . ولكن القاهرة الافرنجية أو الرومية كانت قد بدأت على استحياء فى عهد محمد على كما يقول الجبرتى . واذا بها تصبح هى الصيحة المدوية فى عهد اسماعيل وكأن القاهرة الافرنجية ارادت ان تدير ظهرها الى القاهرة المعزية الفاطمية والايوبية ، فكانت الابواب الخلفية لمسرح الاوبرا تعطى ظهرها للازهر والقلعة ، وتفتح ابوابها على حى الافرنج وحديقة الازبكية والمبانى المشيدة على الطراز الايطالى .

واذا كان « مبنى صندوق الدين » قد أخذ جواره الى الاوبرا الخديوية ، فلم يكن ذلك الجوار موقعا جغرافيا ، لكنه كان أيضا رمزا تاريخيا ، وعبرة للعابرين ، فقد أصبح رمز البذخ الاسماعيلى هو صندوق الدين .. الذى انتهى الى تاليف اللجنة الاوربية لبحث اقتصاديات مصر وماليتها ، تمهيدا لدخول وزيرين أجنبيين فى الوزارة

المصريـــــة ، وكان ايرفنج بارنج ـ أو الايرل أوف كرومر بعد ذلك ـ ان عرف مصر أولا من اقتصادياتها ، اذ كان عضوا فى لجنة التحقيق فى احوال مصر المالية ، قبل ان يعين قنصـــلا عاما لبريطانيـا وحاكما بأمره !

وكان الانجليز عام ١٩٠٣ قد استقر بهم الحال ، فقد قضوا تماما علــى الثورة العرابية ، وبلغ من استقرارهم انهم اعادوا عبد الله النـــديم ، ثم البارودى وعرابى . وكانت القاهرة « الانجليزية » لا تظهر فيها قـــوات الاحتــلال كما يروى الخديوى عباس حلمى فى مذكراته (٢) . فقد فضـــلوا « الانزواء » أو « الاختفاء » حتى ينسى الناس وجود الاحتلال العسكرى . ويتعجب عباس حلمى من حادثة دنشواى ـــ عام ١٩٠٦ ـــ لانه لم نكن من عادة القـــوات الانجليزية ان تظهر كثيرا : ويبدو ان الانجليز ـــ منـــذ ذلك الوقت ـــ كانوا يجربون الخيول الاسترالية فى الطرق الريفيـــة المصرية . ولعلهم كانوا يستعدون لتجربتها فى طرق زراعية أخـــرى ، وما كان ذلك الا تمهيدا للحرب العالمية الاولى فى المشرق ... وعبر سيناء بل وفى فلسطين. وكان من نتيجة هذه التجارب ان اخذت ارجلهم على الطرق الريفية ، ومن هنا كانت حادثة احتكاك بعض الجنود الانجليز بالفلاحين المصريين ، وكانت حادثة دنشواى الشهيرة التى نفخت فى الروح الوطنية من جديد ، وقضت على سطوة كرومر ، وادت الى استقالته .

ولكن عام ١٩٠٣ شهد عز الاحتلال وكما يقول عباس حلمى لم يكن الوجود العسكرى هو الظاهر ، بل كان الوجود الادارى . فقد استتب للانجليز وجود ادارى ضخم فى كل شىء من الرى الى البوليس ، ومن التعليم الى الصحافة . و كان هذا الوجود الادارى ممثلا فى لورد اريفنج بارنج ، سليل عائلة بارنج الشهيرة فى عالم البنوك البريطانيـــة . وكان كرومر نموذجـــا للحاكم البريطانى ، سليل العائلة الارستقراطية ، الحاكمة فى المستعمرات، وكانت معه مجموعة من الموظفين والمستشارين الذين ينزلون أيضا من عائلات ارستقراطية ، ينقسم نصف انبائها الى الخدمة فى الجيش الامبراطورى والنصف الثانى فى عالم المال والدبلوماسية . وكان شقيق بارنج ضابطا فى

الجيش البريطانى فى الهند ، وقد قابل مصطفى كامل عام ١٨٩٥ . وكان بارنج نفسه من الذين يديرون مصر على الطريقة الهندية أو طريقة العقول بريطانية والايدى مصرية !

والذين زاروا الهند والعراق والسودان ، يعرفون تماما الشبه العجيب فى هذه البلاد التى تزويها الانهار ، سواء كان الفرات او النيل او السند ، وقد يلاحظون وجه الشبه العجيب فى استراحات الرى المنتشرة على طول تلك الانهار العظمى التى كانت ذات قرن مهدا لحضارات زراعية عظمى . وكان الانجليز يحكمون الريف بالرى ، والتحكم فى المياه ، ويحكمون العاصمة بالبوليس والادارة والبنوك .

وكانت القاهرة نموذجا صارخا لهذه المتناقضات . على السطح قوات الاحتلال وخبراءه ورجال البوليس ، وفى الاحياء « الوطنية » تغلى أو تفور أو تركد الوطنية كأنها موجات تعلو وتهبط او تهبط لتعلو من جديد !

واذا كان الوجود العسكرى قد انزوى جانبا ، فقد طفح الكيل من الوجود الادارى والمالى . وكان هذا الوجود ممثلا فى القنصل العام ، صاحب القوة الفعلية ، التى تنازع بلاشك السلطة الرسمية ، وفى المسلك الصارخ لذلك الحاكم البريطانى الذى يعتبرنموذجا « مصبوبا » لحكام المستعمرات وشبه المستعمرات . وهو نسخة من اللوردات المتحدرين من الاسر البريطانية المحافظة ، بقواها المالية ، وتجربتها العسكرية ومكانتها السياسية .. ولايختلف فى ذلك كرومر عن كيرزون عن جوردون أو بيرسى عن جورست أو كتشنر أو ستورز أو دانلوب .

وكان اللورد أيرفنج بارنج ، سليل آل بارنج ، أصحاب البنوك البريطانية الشهيرة ، وهو كما يقول ويلفريد بلنت « من اسرة تمارس أعمال المصارف ، وكان من أصل هولندى ، ويقال بوجه عام أنه من عنصر يهودى » (٣) ومن ثم فهو ينتمى من بداية حياته الى صميم طبقة الماليين العليا فى أوربا . وكان قد تعلم فى الجيش أولا ، ولم يوفد الى الهند الا فى الحادية والثلاثين من عمره ، كسكرتير خاص لابن عمه لورد نورثيروك ، نائب الملكة . وسرعان ما قيدت قدراته ، فأصبح بعد ثمانى سنوات على اعتاب دوره الضخم كحاكم حقيقى لمصر . ويقول بلنت أنه « لم يكن على معرفة بحقيقة الشرق وكان يقضى نهاره

فى مكتبه عاكفا على الأوراق الرسمية ، وامسياته فى المجتمع الأوربى بالقاهرة • ومن الطبيعى انه كان موضـــع نقد زملائه ، الذين كانوا أقل تزمتا فى الاســتقامة ، حتى لقد نظم فيه أحدهم هــذه الابيات الساخرة •

فضائل الصبر معروفة ولكنى لا أظن أنها وضعت موضع

الاختبار •

فأهل مصر سيقولون وهم يئنون : أن بارنج فيه من الشر

فوق ما ينبغى •

واذا كان وسط القاهرة قد تحرك من العتبة الخضراء والازبكية صوب النيل تجاه جاردن سيتى والزمالك ، وقد اهتم مهندسو الزمالك ببناء البيوت أو القصور على الطراز البريطانى ، من الداخل ، والطــراز الامبريالــى من الخارج حيث الحدائق التى تجدها فى الخرطوم أو بغداد أو دلهى الجديدة أو القاهرة السابعة . وقد انزوى أكبر فندقين فى عهد الفرنسيين • وهــو فندق الشرق أو لوريان فى ميدان الخازندار ، وحيث نزل فيه أغلب كتــاب وسياح فرنسا من شاتوبريان الى جيرار دى نرفال ، أو فندق النيل — وهو أكثر تواضعــا — فى الموسكى . فقد تربع فندق شبرد على مساحــة عظمى من قصر الالفى ، الذى كان مقرا لبونابرت ، والذى اغتيل فى حديقته كليبر .

فى هذه المنطقة كانت القاهرة « البريطانية » و « الافرنجية » ، وفيها الشوارع الحديثة وحيث يقع مطعم سان جيمس ، والتورف كلوب ، الذى ظل فى شارع المغربى (شارع عدلى) حتى احترق فى حريق القاهرة عــام ١٩٥٢ . وكان هذا النادى هو المفضل للموظفين الانجليز ، حيث يحتسون الويسكى ، ويخدم عليهم بارمان يونانى ، أشتهر على صفحات جــريدة « الاجبشيان جازيت » . ولم يكن صغار كبار الموظفين الانجليــز يترددون كثيرا على نادى الجزيرة أو الجزيرة سبورتنج كلوب الذى كان منحة للانجليز من الخديو توفيق على مساحة ٤٠٠ فدانا ، يلعبون فيه البولو وســباق الخيل والجــولف ولميكن دخــول النادى مسموحا به حتى أن الســماح لمحمــد باشا محمود الصعيدى نجل محمود باشــا سليمان وخريج اكسفورد

بأن يلعب التنس ، هذا النادى - القاصر على الاعضاء فقط كان حدثا قاهريا ملفتا للنظر !

وكانت القصور الثلاثة فى القاهرة هى قصر عابدين أو السلطة الرسمية ، ولاظوغلى ، اى الحكومة ، وقصر الدوباره ، أو اصحاب السلطة الفعلية . وكان كرومر ، بعنجهيته ، وشاربه الذى أصبح نموذجا لكبار موظفى بداية القرن ، هو الرجل القوى الذى لا ينازعه أحد . بينما كان لاظوغلى يشهد « المصريين » المتعاونين أو الراضخين ، ومن بينهم بطرس غالى الذى بدأ أيضا فى نظارة المالية قبل أن يصبح ناظرا للخارجية .

ومن يقرأ صحف تلك الايام ، يجد أن القاهرة بدت فى الظاهر خاضعة تماما ، بينما الغضب الوطنى يتجمع سحبا من بعيد . ويكتشف ان بارنج لم يكن حاكما سياسيا . يمسك بخيوط الحكم

فقط ، بل كان اقرب الى « المقاول » الاستعمارى يهتم بحركة الاسعار والسوق العالمية والمصنوعات البريطانية ، وتنشر صحيفة « الاجبشيان جازيت » فى نفس الاسبوع الذى وصل فيه هرتزل الى القاهرة ، نص خطاب كرومر الى وزير الخارجية البريطانية اللورد لانسداون ، وفيه يكشف كرومر عن آرائه الاقتصادية بعد عودته من السودان ، ويتحدث عن مصر والسودان كسوق فسيح للمصنوعات البريطانية .

ففى ٢٥ مارس ١٩٠٣ ، كتب كرومر فى خطاب لوزير الخارجية البريطانية انه لاحظ اثناء رحلته الأخيرة فى اعالى النيل ان كل المصنوعات القطنية ، والمعروضة للبيع تأتى من « أميركا » « وانه لاحظ بعد البحث أن « الاهالى » يفضلون البضائع الامريكية على البريطانية . وان السير ريجوندوينجت (حاكم السودان) قال له أن الحبشة تستورد كل مصنوعاتها القطنية من اميركا . وان بريطانيا - حتى ذلك الوقت - تورد مصنوعاتها للسودان ، ولكنه يعتقد ان الأهالى لو انتبهوا الى البضائع الأمريكية ، فسوف يضيع السوق السودانى من بريطانيا . »

ويتحدث كرومر فى نفس الخطاب عن المناجم التى حصلت عليها بريطانيا فى السودان ، كما يتحدث عن ازدهار المصرفين الانجليزيين بالخرطوم ، وعن معونة الحكومة البريطانية « المتواضعة » لاحدى شركات النقل النهرى البريطانية فى النيلين الأبيض والأزرق · ويوعو فى نهاية خطابه الى تشجيع زيارة أصحاب الأعمال البريطانيين للسودان ، لأن كثيرا من اليونانيين وغيرهم يتدفقون هناك · » (٤)

وهكذا لا يتحدث كرومر كسياسى بل كرجل أعمال محنك · وهو يتحدث عن زراعة القطن ، واستهلاك المصنوعات القطنية كخبير · وكان ماء خزان اسوان الذى بدأ عام ١٨٩٨ قد تم عام ١٩٠٢ ، وقد حضر الخديوى حفل افتتاحه ، كما حضرته الليدى كونوت ، واللورد كرومر ، وكان واضحا ان مصر تتحول كما قيل بحق فيما بعد الى « مزرعة لانكشاير » ، *ولم يكن ذلك منفصلا عن مشروعات الرى* البريطانية فى الهند أيضا ، حتى أن مشروع « تونجا بادرا » شرقى الهند ظهر فى نفس العام لينافس مشروع أسوان ، بل ليسبقه · وقيل ان مقدرة البحيرة الهندية ستكون خمسة أضعاف البحيرة المصرية · (٥)

وهكذا بدأت بريطانيا تجنى ثمار احتلالها لمصر والسودان واعالى النيل والهند وعدن حين ظهر هذا الزائر الغريب تيودور هرتزل فى القاهرة ·

وصول هرتزل

ولم يطق تيودور هرتزل صبرا ، وعز عليه أن تبقى بعثته فى مصر وان يظل هو فى تريستا ، أكبر ميناء فى امبراطورية آل هابسبورج ، يتابع تنقلات البعثة فى سيناء ، واتصالات مندوبة بالقاهرة جرنبرج الصهيونى البريطانية الذى يطمع فى ازاحته عن المشروع ، ونجد فى مذكرات هرتزل تفاصيل زيارته لمصر · وفى صحف القاهرة البريطانية أشارة عابرة لوصوله ·

وقد وصل تيودور هرتزل على السفينة النمساوية « سميرا ميس » يوم ٢٣ مارس ١٩٠٣ · وكانت عادة الاحيشيان جازيت تنشر عن وصول ومغادرة علية القوم والمشـــــاهير على البواخر الاوربية الكبرى · ونجد اسم « الدكتور هرتزل » فى نهـاية قائمة المســافرين الذين وصلوا ذلك اليوم ، وعددهم ٢٢ مســـافرا · ولا تحفل الصــحافة به كثيرا لانه كان من ركاب الدرجة الثـالثة ، ولا يحفل هو بذكر اى شىء عن المهمة الخطيرة والسرية التى جـــاء من أجلها · فتسجل صحف تلك الأيام وصول ملكة البرتغــال ، ومغادرة الموسيقى الفرنسى الشهير سان سانس ومحـــــاضرة الاثرى الفرنسى مارييت عن مقـــابر سقارة ، ومحاضرة أخرى ـ تهمنا ـ هى محاضرة الخبير البريطـــانى فى الرى ، ويلكوكس ·

ونقرأ على صفحات « نيو فرى بريس » ، انطباعات هرتزل ، وقد صدرها بهذه العبارة اليونانية الموحية التى أقتبســـها فوق بيلو من بقدار : « ان المـــاء أحسن شىء ! ومصر تقع بين حلمين ، الأول هو الذهاب ايها والثانى هو العودة منها » ·

ويصف هرتزل جلسته فى شرفة فندق شبرد الشهير ، وهو يشهد « الحقلة التنكرية ، « وتجلس فى الشرفة ، وبيدك منشة للذباب ، وتدع الأشياء تأتيك ، وتمر بك الالوان والصـــتحات · ومئات من العروض من التجار والتراجمة · صبيانية الشرق وقذارته (كذا) · غير انك فى وســـط كل هذا تجد عددا من رجال البوليس الجـادين المنتبهين المتازين · فيلق من الاسكتلنديين قاطنى الجبال يمرون فى سراويلهم المصنوعة من ذلك القماش المقلم · شباب انيق مرح ·· انه الاحتلال · وانجليز آخرون · وضباط يرتدون الطربوش · وهو أكثر ارتفاعا من مثيله التركى · ولكنهم يعرفون كيف يحافظون على النظام ، دون وحشية ودون جنون استوائى » !

واذا كان هرتزل قد كتب مثل هذه الانطباعات الصحفية الســياحية ،

فلم يكن ذلك سوى ملئا لصفحات جريدته واداء لمهمة ثانوية ، فقد كان بلا شك فى القـــاهرة يفكر فى أمور أخطر وأعمق ، تكشـــفها مذكراته السرية ، قبل مجيئه باسابيع ٠

ويكتب هرتزل فى مذكراته بتاريخ ٣ مارس ١٩٠٣
« الحالة الراهنة كما يلى : ان الوجود فى شبه جزيرة سيناء مختلطة بشكل هو فى صالحنا وجب ان أوضح ما يتلخص فى : امتلاك ، قوة ، حق ، الامتلاك بيد الحكومة المصرية ، والقوة بيد الحكومة الاجنبية ، امـــا الحق فللحكومة التركية لذلك يجب ان أحصل على الملكية من الحكومة المصرية ، ثم الحكومة الانجليزية باكثر ما يمكنها اعطاؤه . وأخيرا احصل على الحق من الحكومة التركية با بقشيش ٠ ستكون تعليماتى للمفاوضين الجدد جولدسمد وكسلر متمشية مع هذا المخطط » ٠

هرتزل يقابل كرومر

وبعد يومين أى ٢٥ مارس ١٩٠٣ يقابل اللورد كرومر ويذكر هرتزل انه دخل فى الموضوع وتحدث عن مد السكة الحديد « وأننا سوف نحتاج الى الماء ومن النيل « ٠

فقال كرومر لا أستطيع ان أعطيك جوابا باتا ٠٠ حتى يرجع الخبير الذى وكلته بهذا ٠ وذكر إسمه فى خلال شهر (يقصد كرومر الســـير ويليام جارستن وكيل وزارة الاشغال العمومية) ٠
وقال هرتزل : نحن نطلب فقط من النيل مياه الشتاء الزائدة التى تجرى عادة الى البحر ولا يستفاد منها .

وعرض هرتزل على اللورد كرومر برقية من روتشيلد كان قد تسلمها فى اليوم السابق لكى يعزز حديثه باسم روتشيلد ٠ ولكن كرومر ينظر اليه متحاليا ويكتفى بالتعليق ٠

ـ انه متحفظ جدا : أنه يتباحث فقط ٠٠
ويتجـــاهل هرتزل برود

اللورد الانجليزى ، أو يصطنع ذلك ، ويخرج من جعبته برقية ثانية سابقة كان قد تسلمها من روتشيلد فى ٣ فبراير .

ويقول هرتزل : اظن أن كلا منهما لا يرتاح للاخر .. لا بد أنه يظن ان روتشيلد وثيق العلاقة بنا .. وتبدلت لهجته الى برود .

— ويقول : وسألته اذا كان على ان ازور بطرس (يقصد بطرس باشا غالى) فقال : نعم وقد أخبرته انك هنا

— وهل ازور المفوض التركى ؟

فقال لا : لا يمكنه ان يقول شيئا بهذا الخصوص ، وأنا لا أعترف به لا تتصل به ، أبدا ... والان .. سأنتظر رجوع بعثتك .

ثم ذهبت لأرى بطرس باشا غالى ..

ويقول (ص ١٤٤٦) .

— وزارة مصرية لا يستطيع المصريون فيها أن يعطوا اى أمر .. خدم كثيرون يتسكعون فى غرف الانتظار الواسعة ..

أرسلت بطاقتى فأسرع بطرس الى استقبالى وهو ... متقدم فى السن بدين مترهل ..

بدأنا بحديث السياح ثم انتقلنا الى الموضوع ...

وسأل هو ايضا : من اين تجيئون بالماء : فاطلعته باختصار على مشروع الرى الذى هيأناه : والذهب أيضا سيكون ريا آخر .. وظل يوافقنى ونحن نشرب القهوة التركية ، الى ان أعلن قدوم القنصل النمساوى وعندئذ تركته .

محاضرة ويلكوكس

ويبدو أن شيودور هرتزل لم يضع وقته فى شرفة شبرد لمشاهدة الحفلات التنكرية ، أو فى ردهاته لسماع موسيقى الفرقة الكلاسيكية التى كانت تعزف فى الفنادق الكبرى ، فقد كانت البعثة الصهيونية قد أشرفت على ختام أعمالها ، وأخذت تكتب تقريرها النهائى ، وانطلق هرتزل فى الرابعة مساء نفس اليوم الذى قابل فيه كرومر وبطرس غالى . ليحضر فى الجمعية الجغرافية الخديوية ، فى قاعة المحاكم المختلطة ، محاضرة لاكبر خبراء الرى وهو السير ويليام ويلكوكس .

وكان عنوان المحاضرة « مصر الجديدة » .. وقد بلغ من اهمية الرجل والمحاضرة ان حفلا آخر أقامته الليدى وينجت فى نادى الجزيرة ، لسيدات الطبقة الراقية ، قبل مغادرتها القاهرة الى لندن ، وقبل عودة روجها وينجت الى الخرطوم ، وقد نشرت الصحف أن الحفل أمه علية القوم ، رغم أنه جاء فى نفس موعد محاضرة ويلكوكس .

وقد تحدث ويلكوكس فى محاضرته عن الحضارات الزراعية القديمة ، وحضارات الانهار . وتحدث أيضا عن مشاريع الرى عند الكلدانيين ، وقال ما نصه :

ـ « ملعون هذا الفرعون الذى قال بفخر . ألست فرعون . ملك مصر ؟ !

ولو أنه شهد العراق لقالها بتواضع . »

هذه هى كلمات الخليفة المأمون ، بن هارون الرشيد ، حين هبط من المقطم . ورأى أرض مصر تحت قدميه .

وقال ويلكوكس :

ـ ولا شك أن الخليفه المأمون بالغ فى قوله . فمصر ، ستبقى ملكة

البلاد المروية • وقد تأتى بعد مصر ـ فى القديم ـ البلاد التى يرويها دجلة •

وما بعث ذلك التاريخ بصعب أو عسير » •

ويروى هرتزل فى مذكراته عن محاضرة ويلكوكس :

ـ « لعل أعظم ما أثار اهتمامى هو العدد المذهل من الشبان المصريين الاذكياء الذين امتلأت بهم القاعة . انهم سادة المستقبل . ومن الغريب أن الانجليز لا يبصرون ذلك • فهم يعتقدون أنهم سيتعاملون مع فلاحين الى الابد • ان قواتهم اليوم التى يبلغ عددها ١٨ ألفا تكفى لهذا البلد الكبير • ولكن الى متى سيستمر ذلك ؟ »

واذا كانت ظاهرة « المصريين » الاذكياء قد لفتت انتباه هرتزل ، وهم يحضرون محاضرة ويلكوكس ، فلا شك أن خطط الصهيونية قد أعمته عن معرفة الحقيقة • فلم يكن هذا « العدد المذهل » من الشبان المصريين سوى الجيل الرابع من أجيال المهندسين المصريين الذين تخصصوا فى الرى والنهر، وكان أولهم فى العصر الحديث محمد مظهر باشا (٨) أول مبعوث فى مدرسة البولتكنيك عام ١٨٢٦ ، ومعه مصطفى بهجت باشا ، والاول كان تلميذا لاوجست كونت ، وهو الذى شارك فى بناء القناطر الخيرية ، وسافر الى فرنسا لمقابلة المهندس موجيل عند ظهور بعض العيوب فى الفتحات الشرقية عام ١٨٤٢ •

وقد أعقبه جيل على باشا مبارك ، ثم تلاه جيل اسماعيل بك سرى ولاشك أنه كان يحضر هذه المحاضرة ، لانه كان مفتش الرى لوسط الدلتا، وهو أيضا خريج مدرسة السنترال (والد حسين سرى باشا) ، وسوف نلتقى به فى نهاية العام ١٩٠٣ عند رفضه لتنفيذ مشروع صهيونى آخر، لتوطين الصهاينة فى كوم أومبو ! •

اجتماع مع البعثة

وأخيرا تكتب البعثة الصهيونية تقريرها فى الاسماعيلية فى ٢٥ مارس، وتجتمع مع هرتزل الذى يقدم بعض الملاحظات ، وأهمها :

١ ـ انه كان يفضل لو أن القسم الاول من الجملة ، جاء كما يلى :
« لا يمكن السكنى فيها فى الحالة الحاضرة ، ولو توفرت الميـــاه يمكن السكن فيها » ٠

٢ ـ « وكان يفضل أيضا الا يذكر السبب الذى من أجله نريد أن تصل البلاد الى خط العرض ٢٩ » ٠

ومعروف أن خط عرض ٢٩ يسير موازيا ابو زنيمة تقريبا على خليج السويس ، أى أن المشروع الصهيونى كان يأمل الحصول على أكثر من ثلثى مساحة سيناء ، وليس كما شاع ـ على استحياء ـ بعد ذلك ، وعرف بمشروع « العريش » ٠

ومن الواضح أن هرتزل كان يريد اخفاء مقاصده ، ومطامعه ، فهـــو تارة يريد اخفاء صلاحية المنطقة للسكنى وعدد سكانها ، للتهوين من خطر المشروع ، وتارة يريد اخفاء حجم المساحة المطلوبة ، حتى لا يشق على الحكومة المصرية ابتلاع المشروع ٠

تقـــرير جارستين

واذا كانت لندن قد رحبت وشجعت ، نتيجة ضغوط روتشيلد وجهـــود هرتزل وسعيهما لدى تشمبرلين ولانسداون ، واذا كانت القاهرة استقبلت البعثة وسهلت مهمتها ، وفاوضتها ثم تحفظت حتى يأتى رأى الخبراء ، فقد جاء القول الفصل من خبراء نظارة الاشغال العمومية ، حين كتب السير ويليام أدمون جارستن (٩) ، وكيل النظارة ، (١٨٤٩ ـ ١٩٢٥) تقريرا نهائيا ٠

وكان جارستين فى ممباسا بكينيا ، وكان براملى كذلك معه ولذلك اعتذر عن اللحاق بالبعثة الصهيونية ، رغم برقية وزارة الخَارجية البريطانية، التى أشرنا اليها فى الفصل السابق ٠

وقد عاد جارستين قبل أسبوعين من الموعد الذى حدده كرومر لعودته، وانتهى فى ٥ مايو ١٩٠٣ من كتابة تقريره بالاشتراك مع فيرشويل المفتش العام لرى الدلتا ٠ ويناقش هذا التقرير الفنى بالارقام المشروع الصهيونى

طبقا للافتراضات المقدمة ، ليصل الى ضرورة المشروع ، لانه سيؤثر دون شك على رى الاراضى داخل مصر (١١) ٠

ويفند التقرير الفنى تقديرات المشروع الصهيونى تأسيسا على أن رى ٦٠ ألف فدان فى سيناء ، وهو ما يقترحه الصهاينة فى البداية يحتاج الى ٥١ متر مكعب فى الثانية ، و ٤ مليون و ٣٤٠ ألف متر مكعب فى اليوم، وهو مالا تستطيع ترعة الاسماعيلية توفيره ٠ ويذكر أن الخزانات المطلوبة ستزيد من ملوحة الارض ، وقد سبق لشركة رى البحيرة أن قامت بتجربة مماثلة فى البرارى ، ثم اضطرت للتخلى عن المشروع ٠

ويرجح التقرير أن الخزانات المقترحة فى المشروع الصهيونى قد لاتأتى بالنتائج المرجوة ٠ وبهذا فسوف تبذل « الشركة » كل جهد لارغام الحكومة المصرية على مدها بالمياه الصيفية من القناة ٠ وفى حالة فشل الخزانات ، سوف تدعو الشركة « الصهيونية » الحكومة « المصريه » لتقديم المساعدة٠ وستواجه الحكومة موقفا حرجا : « فاما أن تشهد خراب مشروع هام ، واما أن تعطى المياه على حساب الارض فى مصر ذاتها ٠ »

وينتهى تقرير جارستين أيضا ، بأن الانفاق المقترحة تحت قنـــــاة السويس ، ستثير مصاعب فنية ومشاكل ضخمة ، لان تمرير ٥١ متر مكعب فى الثانية خلال هذا النفق ، يتطلب على الاقل مد ثمانية أنابيب ، قطر كل منها متران مما قد يؤدى الى تعطيل الملاحة فى القناة ٠

ويقول جارستين : « وانطباعى الماضى ، وهو مستخلص من تجربة طويلة ، ان مثل تلك الحالات ٠٠يصحبها ضغط شديد ، وسترغم الحكومة على الرضوخ للطلبات ، ومن أجل هذا فاننى لا أوصى بقبول المشروع » ٠

ضـــغوط جـــديدة

ويبدو أن هرتزل أحس بالجو فى القاهرة ، ولم تخدعه الموافقة المبدئية من كرومر وبطرس غالى ، كما لم يستطع فى النهاية اخفاء حجم المشروع، ولا تأثيره على المياه ، وخاصة أن عام ١٩٠٣ كان العام التالى لاتمام خزان أسوان ، فأسرع بالسفر الى لندن عن طريق باريس ليقابل تشمبرلين فى ٢٣ ابريل ٠

ويقـــول هرتزل فى مذكراته :

ـ قال لى تشمبرلين العظيم ٠ لقد عثرت لكم على بلاد مناسبة أثناء سفرى ، وهى أوغنده ٠ وهى حارة على السواحل ، ولكن الطقس ممتاز فى الداخل حتى بالنسبـــــة للاوربيين ٠ وتستطيعون أن تزرعوا فيها القطن والسكر ٠ وقد قلت لنفسى وأنا هناك : ان هذه البلاد تصلح للدكتـــور هرتزل ٠

ولكنك طبعا ، تريد الذهاب الى فلسطين أو ما يجاورها ٠

وأجاب هرتزل :

ـ يجب ان تكون قاعدتنا فى فلســـطين ٠ ثم نستطيع بعد ذلك أن نستوطن فى أوغنده ، ذلك ان هنـــاك عددا كبيرا جدا من اليهود يودون الهجرة ٠ ولكن يجب أولا ان نضع أساسا قوميا ، ولهذا فكرنا فى العريش لوضع سياسة جذابة ، ولكنهم لا يفهمون ذلك فى مصر ٠ ولم أستطع أن أوضح لهم الامور كما أفعل هنا فى لندن ٠٠٠

ويجب أن يكون واضحا أننا لن نضع أنفسنا تحت حكم مصرى ، ولكننا نريد حكما بريطانيا » ٠

ويروى هرتزل أن تشمبرلين قال له :

ـ ان الاوضاع ستبقى على ما هى عليه ٠ فلن نترك مصر ٠ وأنا أعرف ذلك لانى كنت فى الحكومة ٠ وكنا قد قررنا الانسحاب من مصر فى الثمانينات ٠ ولكننا استثمرنا فيها كثيرا من الامـــوال ، وأصبحت لنا مصالح جديدة الى درجة لا نستطيع معها أن نترك مصر ٠

.. وهكذا يمكنك ، والوطن الذى نعمل من أجله ، أن تستفيدوا مـــن الممتلكات البريطانية ٠ وأنا على يقين أنكم تستطيعون أن تستفيدوا ٠

أما اذا ســـاءت الامور على غير هـــذا النحو ، فأنا متأكد أنكم ستستطيعون أيضا أن تثبتوا أنفسكم جيدا ٠

وقال تشمبرلين لهرتزل :

ـ ان مصالحنا (أى مصالح بريطانيا)تقل يوما بعد يوم فى آسيا الصغرى . وسيأتى الوقت لا محالة الذى يشب فيه الصراع حول هـــذه المنطقة بين فرنسا وألمانيا وروسيا ، بينمـــا نحن نتراجع الى المناطق الابعد . وفى هذه الحال ، ماذا سيكون مصير مستعمرتـــكم اليهودية فى فلسطين ، اذا قامت فى ذلك الوقت ؟

وقال هرتزل لتشمبرلين :

ـ أظن أن ذلك سيكون فى صالحنا ، لاننا سنكون دولة « حاجزة » .

ومتى تركونا فى العريش ، تحت الحكم البريطانى ، فان فلسطين أيضا ستصبح ضمن السلطة البريطانية » .

وبدا على تشمبرلين أنه اقتنع الى حد ما بهذا الرأى . (١٠)

ورغم أن اللقاء انتهى بوعد تشمبرلين بالحديث مع وزير الخارجيــه لانسداون ، للضغط مرة ثانية على كرومر ، الا أن التقرير الفنى ـ فى ٥ مايو ١٩٠٣ ـ قطع كل سبيل للاجتهاد ، وقد أرسل بطرس غالى باشا ، بعد أسبوع واحد من التقرير . فى ١١ مايو . خطابا الى الكولونيل جولد سمد . الضابط الصهيونى . ومندوب هرتزل الجديد الذى حل محل جرنبرج خطابا ينص على أن الحكومة المصرية نظرا لتقرير جارستين لا تجد بدا من رفض المشروع .

ويشكو هرتزل فى مذكراته ـ على طريقته ـ من أنه « يبدو أننا أخطأنا باعطاء مسودة المشروع لمكلويت بوزارة الحقانية المصرية ، لان فيها كثيرا من التفاصيل ، بينما مذكرتى « كانت أقل تفاصيل ، وتبدو خالية من الاذى » .

وأيا كان الامر ، أو الدافع . فان الحكومة المصرية رفضت المشروع الصهيونى بتوطين اليهود فى سيناء ، ومدهم بمياه النيل عبر القناه ، وقد يبدو التساؤل :

كيف رفضت الحكومة المصرية ذلك المشروع رغم الضغوط الصهيونية النشيطة على تشمبرلين ولانسداون ، ورغم نفوذ روتشيلد الضخم ؟ !

والجواب فى ظنى لا يرجع الى مجرد « الكراهية » الخفية بين كرومر سليل آل بارنج ، أصحاب البنوك البريطانية الذين ذاقوا الامرين على يد آل روتشيلد . وليست تلك الكراهية هى التى تصنع التاريخ ·

ولكن أكبر الظن أن الاسباب العامة كانت أقوى من الخاصه · وقد شرحها تشمبرلين – بإخلاص وصدق – لهرتزل · فبريطانيا كانت تدرك أن القارعة سوف تحدث خلال عقد أو عقدين لتصفية الامبراطورية العثمانية، وسوف تندفع روسيا القيصرية وألمانيا وفرنسا اندفاعا عنيفا لتتقاسم تلك الامبراطورية · واذا كانت بريطانيا قد لعبت دور الحفاظ على الامبراطورية العثمانية . من الناحية القانونية والشكلية ، حتى يقف هذا سدا فى وجه الاطماع الاخرى ، واذا كان هذا قد صح طوال القرن التاسع عشر ، فان ثمار هذه السياسة قد حان قطافها مع مطلع القرن العشرين ، بعد أن استتب الامر لانجلترا ما بين المحيط الهندى والبحر الاحمر والبحر الابيض ·

ومن خلال هذا « المنظور » الاستعمارى البحت لم تعد بريطانيا مستعدة لزرع المشروع الصهيونى ، ذلك الوقت بالذات · وقد أعقب هذا الرفض عام ١٩٠٣ – بعام واحد ، الاتفاق الودى مع فرنسا عام ١٩٠٤ ، الذى زلزل توقعات الحزب الوطنى المصرى . وكان ايذانا بأن فرنسا وانجلترا سوف يتقاسمان الشرق العربى . تمهيدا لمواجهة العدو الجديد الخطير ، ألمانيا الذى بدأ قدراته البحرية العسكرية تثير القلق والخوف · فأصبح عدو الامس حليف اليوم . وكان لابد من تأجيل مشروع « الدولة » الحاجز التى وصفها هرتزل بأدق الاوصاف الى عقد آخر . وقد حدث ذلك عام ١٩١٧.

فاذا أضفنا الى ذلك العامل الاستراتيجى العام ، خطة بريطانيا فى مصر والسودان ، وأعالى النيل ، وهى الخطة التى بدأت فور احتلال مصر عام ١٨٨٢ ، واعادت احتلال السودان عام ١٨٨٩ ، والاندفاع لتنظيم الرى ببناء خزان أسوان الذى انتهت عام ١٩٠٢ ، وربط الزراعة المصريةبالصناعة البريطانية ، والقطن المصرى بالنسيج البريطانى،فقد توفرت لدى بريطانيا – اذن – أسباب اقتصادية هامة لعرقلة المشروع الصهيونى ، حتى لا تتهدد خططها الخاصة ·

مشروع آخر للمواســاة

ولم يكن معنى رفض المشروع تخلى بريطانيا عن الصهيونية ، ولا خلع هرتزل للعباءة البريطانية اذ اننا نقرأ — ويالعجب — فى جريدة الاهـــرام فى عددها ١٩ ديسمبر ١٩٠٣ ، أى بعد سبعة شهور فقط ، من انهيـــــار المشروع الاول مشروعا بديلا ، وهذا نص ما نشرته الاهرام :

« يعرف قراؤنا خبر ابتياع الخواجات سوارس والسير ارنست كاسل لسهول كوم امبو بحرى أسوان من الحكومة المصرية على شروط بيناهـــا فى ذلك الحين ، وخلاصتها أن حضراتهم يأخذون من الحكومة المصريـــة ٣٠ الـــف فدان فيصلحونها ويدفعون للحكومة ثمن الفدان الواحد ٢٠ قرشا ، أى حوالى ٦ آلاف جنيه من ثمن الارض كلها فاذا نجحوا فى اصلاح ثلاثين الاف فدان كان لهم فى السنوات العشر الآتية أخذ السهل كله ومساحته نحو من مائة الف فدان بالثمن ذاته . وتعهدت لهم الحكومة يمنحهم رخص وابورات للرى تروى تلك الارض كلها ، وقد اعطتهم أول رخصة لرى عشرة آلاف فدان،وسنعطيهم فى العا مالمقبل الرخص لرى باقى الثلاثين الف فدان على شرط أن يدفعوا ١٠ قروش من رى كل فدان فى السنة الاولى و ٢٠ فى السنة الثانيـــــة و ٢٥ فى السنة الثالثة ، و ٣٠ قرشا من ابتداء السنة الرابعة ، وتعفى الارض فى السنوات الاولى من كل ضريبة ثم تضرب عليها ضريبة خفيفة حتى ١٥ سنة تمر على تعمرها » .

« ومعلوم أن الخواجات سوارس والسير كاسل أصحاب الارض قـــد عينوا عزتلو المهندس الشهير اسماعيل بك سرى لوضع الرسوم براتـــب ١٢٠٠ جنيه فى السنة ، وطلبوا منه ان يتجرد لخدمة هذه الارض فيعطونـــه ٣ آلاف جنيه فى السنة فأبى . وقد علمنا من الثقاة الخبيرين أن هـــذا السهل سيكون بعد اصلاحه مستعمرة صهيونية اذ يؤتى لزراعة واصلاحه بالفلاحين الاسرائيليين المعسرين كما فعل روتشيلد فى فلسطين وقد انتدب الآن اصحاب الارض بعض الاسرائيليين للمشروع بالاعمال الابتدائية وهكذا الفوا مستعمرة صهيونية فى ارض مصرية ، واغنوا الصهيونيين عن السفر الى شرقى اوغندا ومجاهل افريقيا كما أرادت انجلترا » .

وقد استمر هذا المشروع - الذى اشتراه سوارس وكاسل ، وهما أيضا كبار مؤسسى « البنك الاهلى المصرى » عام ١٨٩٨ ، وقد تأسس هـــذا البنك بقيادة سلفاجو وكاسيل ورافائيل سوارس ، ولعب سوارس دورا كبيرا جدا فى الاقتصاد المصرى ، وقد تدفق الراسمال الاجنبى منذ دكت دعائم الاستقلال الاقتصادى المصرى ، فنجد البنك العقارى المصرى يتأسيس فى أول يناير ١٨٨٠ ، ويشترك فيه سوارس ورولو وقطاوى وهم من أثرياء اليهود ، وقد شارك فيه بنوك السوسينية جنرال ، والكريدى ليونيـــــه وكونتوار ناسيونال ديسكونت . وظل آل سوارس يتضخمون فى أعمـــال البنوك وشراء الاراضى الزراعية والعقارية . فأسس جال سوارس البنك التجارى المصرى ، بل وتأسس بنك سوارس عام ١٩٣٦ ، وكان الاخـــوة رافاييل وجاك وكارلو من أشهر رجال المــال واخطرهم .

واذا كان اسماعيل بك سرى قد رفض ان يتفرغ لهذا المشروع رغـــم الاغراءات المالية الضخمة ، فاننا نجده بعد ذلك وزيرا للاشغال العمومية ابتداء من ١٩٠٨ ويحتل هذا المنصب ثمانية مرات فى ثمانية وزارات كان آخرها فى عام ١٩٢٣ .

ولكننا نكتشف امر احدى الشخصيات الصهيونية الهامةفىتاريخ النشاط الصهيونى بمصر واسمه بن « عاداه » ، هو الذى تولى ادارة المشروع فـــى بدايته ، ثم تولاه بعده طلعت حرب . وكيل الادارة القانونية فى الدائرة السنية، ومدير أعمال ممتلكات سلطان باشا ، وقد احتفلت جريدة اللواء عـــام ١٩٠٥ بتولى طلعت حرب هذا المنصب فى موجة المطالبة بتمصير المناصب !

وقد حدث تغير فى اتجاه المشروع اذ أننا نلاحظ أن الملكية بقيت للاجانب، ولكن هجرة جموع من الفلاحين اليهود المعسرين على حد قول الاهرام قـــد اتجهت فى عام ١٩٠٧ ، فى الموجه الثانية لهجرة اليهود ، الى فلسطين والى « داجانيا » على الشاطىء الغربى لبحيرة طبرية .

وقد بدأت فى هذا العام — والاعوام التى تلته — أكبر موجة هجرة « منظمة » ومخططة « الى فلسطين . وفى داجانيا ولد أول جيل « الصابرا »، ومنهم موشى دايان قبل أن ينتقل الى فهلال غربا .

ولا يذكر المخضرمون الذين عاشوا تلك الايام شيئا عن هذا المشروع ، لان الرقابة على الصحف الوطنية اشتدت عام ١٩٠٩ باعادة قانون مطبوعات

١٨٨١ ، ولأن سياسة ضرب صحافة الحزب الوطنى انتهت الى اغـــــلاق اللواء والعلم والجرائد الاجنبية الناطقة بلسان هذا الحزب ..

ولا يذكر المخضرمون الذين عاشوا فى القاهرة فى الاربعينات ، سوى أن سوارس أول منشىء لاول مستعمرة صهيونية فى مصر ، كان له شأن كبير فى حياتنا الاقتصادية ، بل كان له ميدان اطلق اسمه عليه فى وسط القاهرة . وهو ميدان مصطفى كامل الآن .

فاذا لم يذكروا ذلك ، لعلهم يذكرون عربات سوارس التى كانت تجرها الخيول والبغال ، والتى بقيت لتنقل القاهريين من قاهرة المعز الى قاهـــرة الايوبيين ، ومن باب النصر أو باب زويلة الى القلعة ، ومن ثم يذكرون تلـــك الابيات المريرة الساخرة التى قال فيها « بيرم التونسى » قصيدته الوصفيـــة الشـهيرة ومطلعها :

« ركاب سوارس بعيد عنك شلق هلافيت »

هوامش الفصـــل الخامس

(١) « كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين » ، محمد صبيح ، الطبعـة الثانية ، ١٩٦٦ ،ص٢٤٧ـ ٢٥٠

(٢) مذكرات الخديو عباس حلمى — جريدة المصرى — مايو — يونيو ١٩٥١ .

(٣) النيل الابيض ، تأليف آلان مورهيد ، ص ١٩٨ ، طبعة ١٩٦٢ .

(٤) اجبشيان جازيت ، ٢٥ مارس ١٩٠٣ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المذكرات الكاملة لينودور هرتزل ، الطبعة الامريكية ، ص ١٤٤٦ .

(٧) اجبشيان جازيت ، ٢٦ مارس ١٩٠٣ .

(٨) راجع مقالى كامل زهيرى ، مجلة الهلال ، عددى سبتمبر واكتوبر ١٩٦٨ ، الصهيونية فى مصر .

(٩) نص تقرير ويليام جارستين فى ملاحق هذا الكتاب .

(١٠) المذكرات الكاملة لهرتزل .

الفصـــل الســـادس

المشروع الصهيونى الجديد

ماذا وراء احياء مشروع ١٩٠٣ لتحويل مياه النيل الى سيناء ؟

المشروع الجديد احياء لمشروع ١٩٠٣ بالاضافه الى اخطار عسكرية وعمرانية وسياسية ٠

تفاصيل مشروع بيع مياه النيل لاسرائيل

ماذا نشرت جريدة معاريف ١٩٧٤ ٠
ما هى اخطار المشروع الصهيونى ؟

يدور الحديث الآن تلميحا وتلويحا وتصريحا ، حول تحويل مياه النيل الى النقب في اسرائيل ! .

والتلميح يظهر أحيانا في الصحف العالمية أو التصريحات الرسمية . والتلويح من الدبلوماسيين الذين يظنون أنهم يستطيعون اللعب بورقة مياه النيل في المفاوضات مع اسرائيل ، لعلها تخفف من ضغطها على الضفة الغربية ، وقطاع غزة « وتتوقف عن عرقلة المفاوضات اذا لاح لها بريق الامل في الحصول على صفقة العمر » ، وهي شراء مياه النيل بكميات وفيرة تكفي لتعمير النقب ، وهي ثلثي اسرائيل .

أما التصريح ، فهو في الجرائد الاسرائيلية التي تتحدث عنه من غير خفاء ، وبصراحة تامة .

ولقد كشفنا في الفصول السابقة من هذا البحث ، أن فكرة مشروع تحويل مياه النيل الى صحراء سيناء لتوطين اليهود فيها يعود الى عام ١٩٠٣ . وبينا خطورة وجدية المفاوضات بين هرتز لوتشمبرلين ، وبينه وبين كرومر وبطرس غالي ، وكشفنا كذلك بعض أسباب فشل هذا المشروع ، ومنها ما هو فني يتصل بكميات مياه النيل التي طلبتها الصهيونية لري سيناء ، ومنها صعوبة تنفيذ فكرة الانفاق تحت قناة السويس فنيا — وهو ما لم يعد صعبا الآن بعد تطور الفنون الهندسية الحديثة .

والخطير هو ظهور هذا المشروع الآن على صفحات الصحف الاسرائيلية دون أن تنتبه اليه تماما الصحافة العربية ، أو تعلق عليه بما يتناسب مع خطورته .

وحتى لا يكون حديثنا ضربا من التهويل أو التكهنات،فاننا ننقل مانشرته جريدة « معاريف » الاسرائيلية في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٨ ، ونكتفي بهذا ونغفل بقية التلميحات أو التلويحات الاخرى ! .

قالت الجريدة الاسرائيلية ما نصه :

« كتبت الصحف الامريكية منذ بضعة شهور ، بأن هناك اقتراحا اسرائيليا بأن تقوم مصر ببيع المياه من نهر النيل لاسرائيل . وبالفعل فان الفكرة كلها فكرة اسرائيلية . وهى فكرة المهندس اليشع كلى ، الذى يعمل فى شركة تاحال ، الذى نشر منذ أربع سنوات ونصف مقالا عن هذا الموضوع فى مجلة « أوت » ..

وقد كان ذلك بعد حرب يوم الغفران بفترة قصيرة ، عندما حلم رجل بمبادرة السادات . وبالتأكيد انه لم يكن يحلم بامكانية تحقق هذا المشروع فى القريب العاجل بين الدولتين ، لان جراح الحرب الدامية لم تكن قد التأمت بعد » .

وتقول معاريف :

لقد كان عنوان مقال اليشع كلى هو « مياه السلام » ، وقد كتبه « لحل مشكلة المياه التى ستضطر اسرائيل لمواجهتها لبضعة سنوات قادمة » .

ويرى اليشع كلى ان حل المشكلة موجود ، فى جلب مياه من دول مجاورة ، اى « احضار مياه من نهر النيل الى النقب الشمالى » وقد اضاف الى قوله — « ان هذا شىء منطقى ليس فقط على خريطة وهمية لا توجد فيها حدود سياسية ، بل أيضا على خريطة واقعية بها حدود سلام » .

« وتنفيذ هذا المشروع — لا يتطلب فقط ظروفا سياسية مثل تلك الظروف القائمة الآن ، ولكن لا بد أن تكون هناك أيضا فائدة اقتصادية من المشروع » . وقد شرح المهندس اليشع كلى كلامه بقوله : « ان هناك دولا كثيرة مستعدة للمتاجرة فى مورد طبيعى حتى مع دول معادية ، مثل الصين التى تبيع المياه لعدوتها هونج كونج » .

« والفائدة التى يمكن أن تقدمها مصر فى حقيقة الامر نابعة من هذا الاتجاه . ومن أن تبيع مياه اسرائيل لزراعة القطن بنفس الثمن الذى تبيع به القطن نفسه . وهذا الشىء نافع لاسرائيل حيث يستطيع المزارع الاسرائيلى

أن ينتج بواسطة متر مكعب من الماء ستة اضعاف ما ينتجه الفلاح المصرى من القطن بنفس كمية المياه » (كذا) .

وتضيف جريدة معاريف فى تحقيق ٢٧ سبتمبر ١٩٧٨ قولها :

— ولهذا الاضافة ايضا مغزى هام ، لان مشاكل المياه لدى اسرائيل يمكن أن تحل على المدى البعيد بواسطة استخدام نسبة ١٪ من مياه نهر النيل (٨ر. مليار متر مكعب فى السنة من حوالى ٨٠ مليار متر مكعب فى السنة) .

وقد أعطى اليشع كلى فى مقاله تصورا اقتصاديا الصورة تستطيع به الامداد بالقدر المطلوب من المياه ، وهو حوالى ٣٠ متر مكعب فى الثانية . ويتم نقل المشروع بواسطة أنابيب تحت قناة السويس بجانب الاسماعيلية، وفى الجانب الآخر ، تصب المياه فى قناة مبطنة بالخرسانة ، تقع شمال غرب ، بالقرب من طريق العريش — القنطرة . ومن هنا تسير بمحازاة طريق «غزة — العريش» حتى خان يونس . وهناك فى خان يونس — يتشعب مجرى مياه واحد لقطاع غزة ، ومجرى آخر للنقب فى اتجاه اوفاكيم وبير سبع » .

« وبهذا تكون القناة من الاسماعيلية الى خان يونس بكل تفرعاتها حوالى ٢٥٠ كيلو متر » .

وتضيف جريدة معاريف فى نفس المقال :

« عندما نشر مقال اليشع كلى حسب الكثيرون انه قد ضل الطريق . ولكنه — على حد قوله — يرى أن كل من يمعن النظر فى المشروع بعيدا عن الظروف السياسية سيكتشف انه مهم وجدير بالدراسة . واليوم نجد أن هناك احساسا يفسر الكثير من الاقرار الآن بأن هذا المشروع ليس طائشا . كما بدا عند نشره (عام ١٩٧٤) . ويقول المهندس كلى — مع التحفظ —

انهم يدرسون فى شركة تاحال كيفية استيعاب هذا الموضوع المعقد ، ويحتمل أن يقوموا فى القريب العاجل بتخصيص مجهودات لهذا المشروع ، واحتمالات اخراج المشروع الى حيز التنفيذ احتمالات كبيرة الآن » .

المهندس والشركة ؟ !

وقبل أن نمضى فى تحليل هذا المشروع وآثاره الخطيرة ، لا بد ان نتساءل :

— من هو كاتب المقال ، المهندس اليشع كلى ؟

والجواب ننقله عن معاريف نفسها ، اذ تقول انه مدير التخطيط طويل المدى فى شركة تاحال .

ومعروف أو غير معروف،ان شركة تاحال هى شركة مساهمة اسرائيلية تملك الحكومة الاسرائيلية ٥٢٪ من اسهمها ، ويملك الباقى مناصفة الوكالة اليهودية والصندوق القومى اليهودى .

ومعروف أيضا أن مهمة الشركة هو التخطيط لاستثمار الموارد المائية فى اسرائيل ، والقيام بالدراسات اللازمة .

وفى اسرائيل ست مؤسسات ، أو هيئات تتصل بالمياه . أولها وزارة الزراعة ــ التى يتولاها دائما عسكريون من دايان الى شارون . وهى التى تختص وحدها باصدار تراخيص حفر الآبار ، واستغلال المصادر المائية ، والاشراف على الابحاث . وهناك مجلس المياه الذى انشىء عام ١٩٥٩ ، ويترأسه وزير الزراعة ، وتشترك فيه بقية الهيئات المائية . ويتولى المجلس وضع سياسة اسعار المياه التى تختلف بين المدن والمصانع والمستوطنات . وتدعم الحكومة الفارق بين تكلفة المياه وسعرها المنخفض الذى تبيعه للزراعيين .

وهناك بعد ذلك ، شركة « ميكورت » ، وهى شركة تتملكها بالتساوى الحكومة ، والهستدروت (ولاتحاد عمال اسرائيل نشاطات مائية وصناعية ضخمة) والوكالة اليهودية والصندوق القومى اليهودى . وشركة « ميكورت » هى التى تنفذ ما تضعه شركة « تاحال » من خطط .

ومعنى ذلك أن المشروع المقترح لاول مرة عام ١٩٧٤ ، والذى ظهر على السطح عام ١٩٧٩ ، تتولاه شركة تاحال ، وهى مؤسسة هامة فى اسرائيل ، بل هى المؤسسة المنوطة بتخطيط المياه ودراسة المشاريع،وهى التى وضعت كل مشاريع المياه منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن .

وقد يكون من المهم أيضا أن نعرف ، نقلا عن معاريف ، أن المهندس اليشع كلى ، كان فى بعثة فى نيكاراجوا لمدة عام ، ليدرس تخطيط وتنفيذ الانهار فيها .

ومعنى ذلك أيضا أننا أمام مشروع جاد ، وليس مشروعا طارئا أو حلما من احلام المهندسين ..

.. اهمية النقب

وسوف نبعد عن الحديث أى اشارة الى الاطماع « التقليدية » للحركة الصهيونية فى موارد المياه العربية . فقصة مشروع تحويل مياه الى شبه جزيرة سيناء عام ١٩٠٣ طبقا لمشروع تيودور هرتزل ، وجوزيف تشمبرلين ، قد تناولناه تفصيلا وبالوثائق فى الفصول السابقة .

ومشروعات الحصول على مصادر المياه العربية ظهرت منذ عام ١٩١٩ فى المذكرة الصهيونية المقدمة الى مؤتمر السلام بباريس ، وكانت تنص على « أن تبدأ حدود فلسطين عند نقطة على البحر الابيض بالقرب من صيدا ، وتتبع منابع المياه التابعة من سلسلة جبال لبنان حتى جسر القرعون ، ثم الى البير ، وتتبع الخط الفاصل بين حوض وادى القرن ووادى التيم ، وتتمه جنوبا ، لتتبع الخط الفاصل بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ » .

واذا كان مشروع ١٩٠٣ قد تحطم ، أو تأجل ، بسبب الظروف الدولية التى فرضت على انجلترا سياسة الوفاق الودى على فرنسا عام ١٩٠٤ ، تأهبا لمواجهة المانيا ، واستعدادا للصدام مع تركيا والمانيا عند الانتقال الى تنفيذ سكة حديد الحجاز ، كما حدث تماما فى عام ١٩٠٦ ، فى الحادث المعروف بحادثة طابه ، وكل ذلك تمهيدا للحرب العالمية الاولى ، وللانتهاء من تنافس المانيا داخل الامبراطورية العثمانية سواء فى اتجاه الحجاز أو العراق أو سوريا ، فان نفس المشاريع والاطماع الصهيونية بقيت ، أو على الادق تأجلت لموعد لاحق ! .

ومعروفة كافة المشاريع الصهيونية ، قبل ظهور اسرائيل ، ومنها اقتراح عام ١٩٤١ الذى قدم للرئيس اللبنانى الفريد نقاش عام ١٩٤١ لاستثمار المصادر المائية فى لبنان . وقد انكشفت أبعاد هذا المشروع ، ومراميه ، وأوقفته الاصوات الوطنية فى حينه .

وتأتى بعد ذلك سلسلة من المشاريع الامريكية من لودر ميلك عام١٩٤٤ الى مشروع جونستون ١٩٦٥ ، وكلها تعنى « التربص » بالميـــاه العربيـــة شمالا وشرقا وجنوبا و الانقضاض عليها كلما حانت الفرصة !!

الخطر الجـديد

ولسنا هنا نناقش جدية المشروع الصهيونى الجديد ولا شك فى جديته، لأنه صادر من هيئة التخطيط الرسمية ، وهو ليس مجرد شطحة مهنـدس حالم ، ولكننا نتوقف عند نقطتين هامتين :

أولا : أن المهندس اليشع كلى عرض الموضوع بنفس الطـريقة التـى عرضتها به البعثة الصهيونية الفنية عام ١٩٠٣ .

تهوين شديد . وتبسـيط أشـد . فمشروع ١٩٠٣ كان أيضا يخفـى « عدد سكان » سـيناء ، ويقلل من كميـة الميـاه المطلوبة ، وذلك حتى تتم الصفقة ، وخاصة أن من لا يملك كان يعطى من لا يستحق ،اذان الصفقة كانت تتم فى الدرجـة الأولى بين انجلتـرا فى عنفوانها الاسـتعمارى ، والصهيونية فى عنفوانها العنصرى .

واليوم ، يطرح المهندس الصهيونى مشروعه الجديد،قائلا ان حل مشكلة الميـاه فى اسرائيل لا يحتاج الى أكثر من ١٪ من مياه النيل سنويا (٨ر. مليار متر مكعب فى السنة من حوالى ٨٠ مليار متر مكعب) . وهكذا يصوغ المشروع بطريقة « اعلامية » فذه للتهوين من الكمية ، والتقليل من اهميتها .

ولكننا اذا علمنا أن مصر كلها ، تقتطع طبقا لاتفاقية ١٩٢٩ ، ٥ر٥٥ مليار متر مكعـب ، واذا قارنا بين عدد سكان مصر الذين يتزايدون بسرعة تلتهم كل الاصلاحات الزراعية، وجدنا أنفسنا قاب قوسين او أدنى من كارثة حقيقية ! .

مشكلة المياه فى اسرائيل

ان شركة تاحال ــ اياها ــ وضعت ثلاث خطط لزيادة كمية الميـاه فى اسرائيل . الأولى من عام ٥٣ الى ٦٠ ، لزيادة كمية المياه من ٨١٠ مليون

متر مكعب ، الى ۱۷۳۰ مليون متر مكعب . والخطة الثانية عشرية من ١٩٥٦ الى ١٩٦٥ لزيادة مساحة الاراضى المروية من ۸۸۰ الف دونم الى ٣ ملايين دونم ، أما الثالثة ، وهى من عام ١٩٦٦ الى عام ١٩٧٤ ، فترمى لزيادة كمية المياه ۹۲ مليون متر مكعب لتصل فى المرحلة الثانية الى ۲۰۰ مليون متر مكعب.

والمعروف أن الاتجاه الجديد فى اسرائيل هو الاتجـــاه جنوبا . الى النقب .

ومساحة النقب(١) ثلثا مساحة اسرائيل . وقد حصلت عليها اسرائيل بعد اغتيال الكونت برنادوت الوسيط الدولى بدعوى أنه يتحيز للعرب فى مشروع التقسيم . والنقب محاط أيضا بهالات من القدسية شأن الدعوى الصهيونية التى تخلط الأطماع السياسية بالعقيدة . والاخطر أن زراعته تسهل استيعاب مزيد من يهود « المنفى » أو الدياسبورا ، ولا نضيف جديدا الى أن انتفاخ اسرائيل ، باصلاح النقب ــ ســواء عن طريق بيـــع مياه النيل ، أو المشاركة فى مشروعات مشتركة ــ سيؤدى الى اضافة ٤ ملايين صهيونى ، وهو ما يجعل اسرائيل على مدى عشرين عاما أقوى دولة فى الشرق الاوسط بلا منازع . وسيؤدى ذلك اختلال اى توازن ، حتى التوازن الـــذى يفترضه القرار ٢٤٢ ، لأن درجة الزيادة فى الدول العربية من ســـوريا أو العراق أو لبنـــان أو الكويت والســـعودية لا يمكن أن تسير بنفس هذه الدرجة .

ان الزيادة السكانية فى هذه البلاد هى الزيادة الطبيعية عن طريـــق التناسل ، وحتى لو بلغت الدول العربية أكبر نسبة فى العـــالم ، فان الزيادة « الصناعية » فى اسرائيل ، عن طريـــق نقل اليهود من الخارج ، سيضيف اختلالا فظيعا لهذا التوازن الديموجرافى ، بل سير كل بأقدامه أى تصـــور عن أى توازن مفترض !

وحتى نبدد أى ظن بأن هـــذا المشروع هو مجرد شطحة هندســـية . فاننا نورد الأسباب العديدة لجديته ومنها :

أولا : ان اسرائيل قد أتمت مشروع طبرية النقب لتحويل مياه الاردن ، وقد مدت فى ذلك القنوات المغلقة ، أو الانفـــاق وسط الجبال ، ومد القنوات الخرسانية ، والانابيب الحديدية . وتبدأ هذه القنـــاة الطويلة من شرقى اسرائيل الى غربهـــا الى وسطها ، فتسير فى محاذاة الســـهل الساحلى .

من الطابغة الى ايشد كينريت الى تل العريمة الى سهل الغوير ، الى نفق عيلون أو عيلين الى سهل الطوف ، ونزية عرابة ، ووادى مالك ، الى نهلال فى مقاطعة يزراعيل فى مرج ابن عامر على طريق حيفا الناصرة . وتنتقل هذه القناة الى كيبوتز مسمارها عمق ، ثم راس العين ، وبتاح تكفا . الى العوجا (اليركون) ، ثم طيرة يهودا ، ونوجا فى مقاطعة عسقلان ، وجثيم فى مقاطعة بير سبع قرب حدود غزة حتى مستعمرة ماجن شمال النقب . (انظر الخريطة) .

وقد استنفدت اسرائيل المياه ، أو كل قطرة ماء ، من الانهار ، سواء الاردن أو العرجون ، وكل قطرة ماء من الامطار ، أو تحلية المياه المالحة ، أو حتى اعادة تصفية مياه المجارى .

وامتداد المشروع الصهيونى الجديد ، معناه نقل مياه النيل الى النقب الشمالى الغربى لتتصل هذه القنوات « الجديدة » بالقنوات القديمة ، وبذلك تتصل مياه النيل بمياه الاردن ، وتمتد شبكة مائية الى الجنوب لتعمير النقب بشريا وزراعيا وصناعيا بل وذريا (لأن ديمونا تقع فى شرقى بير سبع) !

ثانيا : اننا لا نستهين بهذا المشروع ، لأن اسرائيل تعتمد فى دراساتها على مشاريع قديمة ، للرى ، وأبحاث قديمة فى الحفريات والآثار تعود الى أيام الانتداب أو من أهمها أبحاث لودرميلك صاحب فكرة مشروع تحويل نهر الأردن الى النقب . وقد لا يعرف الكثيرون أن لودرميلك قد نشر كتابه «فلسطين . أرض الميعاد » ١٩٤٥ ، بعد أن مسح صحراء سيناء والنقب ، وهو يعتمد فى أدائه على أبحاث مكانية ، وتصوير من الجو ، وأبحاث أثرية ، تؤكد أن منطقتى النقب وسيناء أيضا تعود الى حضارة زراعية كانت أيام الانباط (٢) ، وهم أصحاب حضارة زراعية ، وكانوا عربا توطنوا ، وازدهروا تجاريا وزراعيا ، أيام سوريا البيزنطية .

ويقول لودرميلك فى كتابه (ص ١٢٨) (٢) : « نجد دليلا على أن هناك شعبا نشيطا ومزدهرا عاش ، هذه النواحى ، فى العهود التالية للانجيل ، وهذه الادلة بقايا ست مدن ، وقد وصل الى قمة ازدهاره ، عصر جوستنيان الامبراطور البيزنطى » .

وقد كانت عاصمة البيزنطيين هى البتراء فى شرقى الاردن الآن ، وتؤكد اكتشافات ليونارد ودلي ، ولورنس فى كتابهما « التيه » عام ١٩١٤

ان الانباط اعتمدوا على خزن المياه . وقد تفوقوا فى الهندسة الزراعية .

بل ويذهب أيضا الماجور جارفيس (حاكم سيناء البريطانى) فى أبحاثه فى سيناء والنقب (ومنشوره فى Royal Central Asia Journal عام ١٩٣٨) ان العوجه والخالصة ورحيب وعبده كرنب وغيرهما كانت آهلة بالسكان الذين يعتمدون على الزراعة .

ولا شك أن اسرائيل أيضا تعتمد على أبحاث سير جون سيمبسون الذى أرسلته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٠ لرصد امكانيات الزراعة فى فلسطين ، وهو يؤكد أن « امكانيات زراعة منطقة بير سبع اذا توفرت المياه امكانيات مؤكدة » .

ثالثا : من الملفت للنظر أن الاستيطان أو الاستعمار الصهيونى قد بدأ بطريقة عفوية منذ ١٨٧٩ و ١٨٨٢ على يد جماعة البيلو ، فقد بدأت المرحلة الثانية لهجرة منظمة ومخططة عام ١٩٠٧ ، ثم استمرت موجات الهجرة والتوطن وشراء الأراضى ، مصحوبة دائما ، بالبحث العلمى ، والتدريب العسكرى ، والايدلوجية الصهيونية ، وقد تركزت فى أغلبها وحتى عام ١٩٤٨ ، فى الشمال حيث المياه ، وحيث امكانيات الزراعة والصناعة ، ولكنها بعد انشاء اسرائيل اتجهت جنوبا — على استحياء — ولكن بتخطيط عسكرى اقتصادى ، تجاه الحدود المصرية بين سيناء والنقب .

ويمكن أن نعتبر أن عام ١٩٧٤ هو عام الانطلاق جنوبا للتركيز على النقب ، وبتحليل المستعمرات والمراكز الصناعية أو العلمية أو الذرية التى اقيمت من عام ١٩٤٨ ، وخلال ثلاثين عاما ، فى النقب ، ان كل شىء قد اعد تماما حتى اذا وصلت شرايين المياه ، اتصلت الحياه الاستيطانية ، وتضاعف عدد يهود اسرائيل (حتى ضمن الحدود الدولية التى تعترف بها الامم المتحدة منذ عام ١٩٤٨) ، وهو ما يصل بنا الى تنبؤ رهيب بامكانيات الاتجاه جنوبا على حدود السعودية والاردن ومصر ، بما يحويه ذلك من امكانيات عسكرية خطيرة قد تبررها — من وجة نظر غير عربية — خطورة أهمية منابع البترول فى العالم العربى .

الأساطير العلمية

ويهمنا هنا ، ونحن نناقش هذا المشروع أن نرد على هذه الموجة المرتفعة مما أسميه الخرافات العلمية ، أو الأساطير التنبؤية ، التى تعتمد

عليها بعض المؤسسات العربية التى تدعى انهـــا تعتمد على علم«التنبؤات» أو قياس احتمالات المستقبل .

ولا ينفع فى ذلك ان تستعين هذه العقلية « الخرافية » بالكومبيوتر ، والادمغة الالكترونية !

وقد هبطت علينـــا أخيرا بعض الكتابات « العربيـــة » للاسف التى يتحدثون فيها عن احتمالات المستقبل للعـــالم العربى عام ٢٠٠٠ ، على ضوء التسوية الثنائية ، أو التسوية الشاملة !

ومن المضحك المبكى أن تضع هذه الكتابات كل الاحتمالات ، وتتناول كل التفاصيل ، من تأثير كامب دافيد على التغير الاجتماعى ، أو السياسى . بل وأحيانا على بنية المجتمع الاسرائيلى : وان تهمل فى نفس الوقت هـــــذا المشروع المحورى الخطير .

وفى ظنى أن مثل هذه الروح التنبؤية ليست من العلم فى شىء اذا أغفلت المشاريع الفعلية أو المحتملة فى القريب العاجل .

والدراسة العلمية الحقيقية لا تعنى حشو الادمغة الالكترونية باسئلة ساذجة للحصول على حلول أكثر سذاجة .

الدراسة العلمية للصراع العربى الاسرائيلى ، مثله مثل اى صراع آخر لا تنفصل عن المشاريع الاقتصادية والمالية المطروحة .

ومن أجل هذا ، كانت دراستنا عن مشروع مياه النيل عام ١٩٠٣ . وكان بحثنا فى هذا الاقتراح الخطير الجديد عن تحويل مياه النيل الآن .

ان دراسة الشرق الأوسط فى الربع الاول من القرن العشرين لا يمكن أن ينفصل عن مشروع مد سكة حديد الحجاز وسكة حديـــد بغداد وعن المنافسة — بالتالى — بين المشاريع الالمـــانية والمشـــاريع البريطانيـــــة والفرنسية . بل أن حرب ١٩١٤ — ولو فى شقها الشرق الاوسطى — لم تكن سوى حربا حول هذه المشاريع .

وكما ارتبط مصير مصر بقناة السويس لاكثر من سبعين عاما ، فـــان

دراسة احتمالات المستقبل لا يمكن أن تنفصل عن دراسة مثل هذه المشاريع الخطيرة ، القائمة والقادمة ! .

من اين تأتى الأموال ؟

والمضحك المبكى حقا ان هؤلاء الدارسين لمستقبل المنطقة ، يغفلون دور البترول وأهميته ، ودور الممرات البحرية والموارد المائية وأهميتها ، وهم كذلك يغفلون أن اسرائيل ــ وهى فى حاجة ملحة الى مزيد من المياه ومزيد من الدعم البشرى من الخارج ، سوف يزداد احتياجها الى مزيد من الدعم المالى من الخارج لتحقيق مثل هذه المشاريع .

فليس فى اسرائيل ــ داخليا ــ مدخرات تكفى لتمويل هذا المشروع الذي سوف يتكلف مئات الملايين بل آلاف الملايين من الدولارات .

ومعنى ذلك أن اسرائيل ستستمر « دولة محمية » من الولايات المتحدة ــ حتى لو اشتركت فى التمويل رؤوس الاموال الاوربية واليابانية ــ وسوف تستمر اسرائيل فى نفس ظاهرة « جنوب أفريقيا » التى كانت تستغل مناجم الذهب ، وفى نفس الوقت تحتاج الى مزيد من الأيدى العاملة السوداء من « الأهالى » .

ولهذا فنحن أمام خطرين ، ينافس الخطر منهما الخطر الآخر .

١ ــ أولها ، هو سياسة الافقار المتزايد ، أو اتساع الفرقة الاجتماعية فى المجتمع المصرى ، سوف تدفع بمزيد من الآغنياء الى أعلا ، ومزيد من الفقراء الى أسفل ، وسوف يتدافع هولاء الفقراء ، مع ضيق الأرض الزراعية ، واختلال الصناعة الوطنية ، الى الارتماء فى أحضان مثل هذه المشاريع .

وقد يرتفع أجر العامل المصرى ، نسبيا ، ولكنه سيتحول الى « جيش » من المرتزقة او عمال التراحيل ، وهى نفس الظاهرة التى تولدت عن الوجود الفرنسى فى الجزائر ، بل وتونس ، الى طرح اكثر من مليون عامل جزائرى يعملون فى الأعمال الشاقة الأوربية » .

أننى اكاد اسمع اصداء صرخات فلاحى مصر حين كانوا يعملون فى السخرة أيام حفر قناة السويس !

وبعد ..

هذا النيل الذى أصبح معبودا أيام الفراعنة ، بل وتكونت حوله اساطير أوزوريس وايزيس ، ووصل فيه التقديس الى القاء الاحياء فى مجراه قربانا . بل وصل فيه التقديس الى حد رفع الغرقى فيه الى مرتبة القديسين . بل وتحريم كل ما يعيش فى النيل كالسمك وفرس النهر والتماسيح . والذى كان الفراعنه يقسمون فصولهم الى فصول ثلاثى ، تبعا لحركته من فيضان وهبوط . وأحاطوه بالخوف والتمنى . وربطوه بالنجم الشعرى الذى كان يظهر وقت بداية الفيضان ! ...

وهذا النيل الذى أرتبط الماء فيه بالدماء حتى وصف هيرودت مصر ، بأنها هبة النيل . وهو الذى ارتبط فيه السودان بمصر بوشائج القربى والدين والدم ، وهو الذى أخرج عباقرة المهندسين المصريين فى العصر الحديث ، فقد أصبح محمد مظهر ، ومصطفى بهجت أول مبعوثين مصريين لدراسة الهندسة عام ١٨٢٦ فى مدرسة البولتكنيك بباريس ، من كبار رجال الرى ، ومن بعدهم على مبارك ، وأمين سامى ، حتى سميكه وعثمان محرم وموسى عرفه والشرباصى وغيرهم مئات ، كانوا أقرب الى أمهر « القادة العسكريين » لتنظيم الرى . ومنع أخطار الفيضان . وهذا النيل الذى دارت حول مشروع السد العالى أحد الحروب . كما دارت حول قناة السويس حرب ثانية ، ماذا تخبىء له « التنبؤات » ! ؟

لقد أصبح الصراع على مصادر الطاقة المائية ، لا يقل عن الصراع على الطاقة الحرارية . وخلال أعوام سيصبح سلاح « القمح » لا يقل خطرا عن سلاح « البترول » .

فأين نحن من هذه المشاريع ؟ !

ومتى يتحدث مهندسونا وزراعيونا وفلاحونا ومثقفونا — ومصر زاخرة بالوطنيين فى كل مكان .

ان اخطار المشروع الصهيونى للحصول على مياه النيل لا تقل عن انشاء اسرائيل نفسها عام ١٩٤٨ .

وليس هذا الكتاب سوى وثيقة اتهام للاطماع الصهيونية .. وكلمة دفاع من وطن عرف أهمية العمل والعرق . بل عرف أول عريضة تطالب بالعدل ، وهى شكوى « الفلاح الفصيح » منذ خمسة آلاف عام !

انها صرخة تحذير وتنبيه لأعرق وطن فى العالم عرف العمل وعرق الانسان !!

هوامش الفصل السادس

المشروع الصـــهيونى الجديد

(١) يقول كتاب « دليل اسرائيل » ص ١٤٩ ، ان النقب لم يكن فى يوم من الايام منعزلا عن الاتصال المبـــاشر بالناس . فان بئر السبع كانت مدينة فى عهـــد ابراهيم ، مشهورة بمصادر ميـــاه الشرب الدائمة من الآبار والينابيع ، وموقعهـــا الهـــام على طريـــق التجارة . وفى عهد قريب تم العثور على مساكن فى جوف الارض يرجع تاريخها الى ما قبل ابراهيم بألفى عام .

... وفى السنوات الاخيرة حدد الاثرى الامريكى د. نلسون جلويك Nelson Gluek حوالى ثلثمائة مكان كانت مأهولة بالســـكان . اذ بعـــد أن سحق الامبراطور الرومانى ادريان الانباط فى القرن الرابـــع الميلادى ، قام الحـــكام البيزنطيون الجدد لفلسطين باحيـــاء بعض مدن الانباط التى كانت تقـــع على طريـــق التجارة الهـــامة .

(٢) تقول الانسكلوبيديا البريطانية الجزء ١٦ ص ٥٦ من الطبعة ١٩٥٦ ، أن الانبـــاط أو البنطيين شـــعب عربى قديم عاشوا حوالى ٣١٦ ق.م ، بين سوريا والعربية الى البحـــر الاحمر . وقد ظل النبطيون أهل تجـــارة وزراعة . وانتشرت حضارتهم الزراعيـــة ، وكانوا يتخذون البترا عاصمة لهم وهى تقع فى الاردن . وبترا معنـــاها باللاتينيـــة الصخر ، ومنهـــا اشتق البترول أى زيت الصخر . وقد قضى الامبراطور تراجان على مملكتهم المزدهرة .

وقد كشفت الاثرية ديانا كيربردج Diana Kirbridge ان ١٣ معبدا وجدت فى البترا ، وتنور وقصر الدرع وجرش ورباح وسيناء .

(Le Temple Nabatéen de Ram, son évolution architecturale)

ويقول د. فيليب حتى فى كتابه « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (ج ١) » ان حضـــارة الانباط عربية فى لغتها ، آرامية فى كتابتها ، سامية فى ديانتها ، ويونانية رومانيـــة فى فنهـــا وهندستها المعمارية ، وهى لذلك حضارة مركبة ، سطحية فى مظهرها الهلينى ، ولكنها عربيـــة فى أساسها ، وبقيت كذلك .

وقد أصاب المؤرخون القدامى سترابو ويوسيفوس وديودورس باطلاق اسم العرب على الانباط .

وقد كانت ديانة الانباط من النوع السلمى الشائع وأساسها طقوس الخصب المتصـــل بالزراعة (ص ٤٢٨).

... وكانت مدينتهم المدينة الوحيدة بين الاردن والحجاز التى موجد فيهـا ميـــاه غزيرة وننية .... ولم يكتب مهندسو الميـــاه الانباط بمياه ينابيعهم ، ولذلك اصبحوا بارعــين فى استخراج المياه الباطنية ، وفى استخدام مياه الامطار الشلية .

(٣) من المراجع الهامة عن المياه والزراعة فى اسرائيل .

1 — l'Agriculture en Israel edité par le centre Israelien de documentation pour les pays de langue française, Ambassade d'Israel, 1963.

2 — The Master Plan for Israel irrigation developpement, Tel Aviv, June 1956.

3 — Water works in Israel, Forecast and Implication, Publication No. 3, Ministry of Agriculture, Water Commissionner, Economic Section, June 1966.

(٣) انظر كتاب لودر ميلك ، اسرائيل ارض الميعاد

Palestine, Land of Promise.
by Water clay Lowdermilk,
with a forward by Sir E. John Russel, London, 1945.

ترجمة نص تقرير سير وليام جارستن وكيل وزارة الاشغال العمومية ، ٥ مايو ١٩٠٣ واسباب رفض المشروع الصهيونى على أسس فنية

« بحثت المسألة مع المفتش العام للرى ، فى مصر السفلى ، واتفقنا على ان المشروع ، بالطريقة المقدم بها ، لا يجب الموافقة عليه .

يرى مستر ستفنس أن توفير كمية ١٢ مترا مكعبا فى الثانية (فى الاسماعيلية) ، خلال خمسة شهور فى السنة ، تكفى . وبهذه الكمية يقترح رى محاصيل الفيضان ، وأن انضاج المحاصيل الشتوية ، ورى المحاصيل الصيفية بفضل المياه المخزونة فى خزانات صناعية ، تقام فى سهل الفرما . (سيناء) .

ويوضح مستر فيرشويل ، المفتش العام للرى فى مصر السفلى ، ان الكمية المقترحة لـ ١٢ متر مكعب ، لا تكفى مطلقا للغرض المطلوب . فالمساحة المقترح ريها ٦٠٫٠٠٠ فدان . وكمية الماء المطلوبة لريها ، خلال الفيضان ، (باستخدام صيغتنا المصرية) ستكون ٣٠ مترا مكعبا للفدان ، وبهذا يكون المجموع ٦٠٫٠٠٠ × ٣٠ = ١٫٨٠٠٫٠٠٠ متر مكعب من المياه . وهذه الكمية تعتمد على المياه التى يمكن خزنها لاستخدامها صيفا وشتاء . وعلى الرغم من أن التجربة فى مصر ، تظهر ، نحو ٥٠٪ من مجموع المنطقة يزرع سنويا بالمحاصيل الصيفية ، فاننى من اجل الحساب ، سافترض ٤٠٪ فى حالتنا .. أى ٢٤٫٠٠٠ فدان سوف تزرع فى الصيف . وبذلك تكون كمية الماء المطلوب لرى هذه المساحة كالتالى :

١٢٢ يوم × ٢٤٫٠٠٠ فدان × ٣٠ متر مكعب =
٨٧٫٨٠٠٫٠٠٠ متر مكعب ٠

وتزويد مياه الرى ، من يناير الى مارس بعد توقف القناة ، سيكون كالتالى :

بانقاص المنطقة الصيفية من مجموع الكمية ، تكون النتيجة كالتالى :
٦٠٫٠٠٠ — ٢٤٫٠٠٠ = ٣٦٫٠٠٠ فدان للرى الشتوى .
وبحساب ٢٥ متر مكعب للفدان ، يكون المطلوب من المياه

٣٦٫٠٠٠ × ٩٠ يوما × ٢٥ متر مكعب =

٨١٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب

ويكون مجموع كمية المياه المطلوب خزنها كالتالى :

للمحاصيل الصيفية	=	٨٧٫٨٠٠٫٠٠٠ متر مكعب
للمحاصيل الشتوية	=	٨١٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب
		١٦٨٫٨٠٠٫٠٠٠
أو لنقـــــل :		١٦٩٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مكعب

ونصل بعد ذلك الى مسألة تبخر المياه فى مثل هذه الخزانات الضحلة ولنقبل المعدل اليومى الذى اقترحه مستر ستفنس ، وقدره ٠٠٨ر متر ، وبذلك يكون (فى سبعة شهور = ٢١٠ يوما) ، ٢١٠ × ٠٠٨ر متر= أى ١٫٦٨ مترا ٠ وبذلك يكون عمق الخزان ٣ امتار ، ويصعب أن يزيد على ذلك ، فتكون النتيجة ٣٫٠ ــ ١٫٦٨ = ١٫٣٢ متر من العمـــق مهيأ للزراعة ٠

وتكون مساحة الخزان المطلوبة =

$$\frac{١٦٨٫٠٠٠٫٠٠٠}{١٫٣٢} = ١٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠ \text{ مترا مكعبا}$$

ولعلى ابين ان هذه المساحة المخصصة للخزانات . تصل الى ٣٠ر٠٠٠ فدان ، أى نصف المساحة المستهدفة للزراعة · وتكون كمية المياه المتبخرة كالتالى :

٠٠٠ر٠٠٠ر١٢٧ × ١٦٨ = ٠٠٠ر٠٠٠ر٢١٣ متر مكعب ·

وبهذا تصبح الكمية المخزونة

٠٠٠ر٠٠٠ر١٦٩ + ٠٠٠ر٠٠٠ر٢١٣ =
٠٠٠ر٠٠٠ر٣٨٢ متر مكعب

وبذلك يكون اذن المستخرج من القناة (خلال ٥ شهور) :

$$\frac{٣٨٢ر٠٠٠ر٠٠٠}{١٥٠} = ٢ر٥٤٠ر٠٠٠ \text{ متر مكعب فى اليوم}$$

واذا أضفنا الى ذلك المياه المطلوبة لرى الفيضان كما حددناها آنفا ، تكون النتيجة :

٠٠٠ر٤٥٠ر٢ + ١ر٨٠٠ر٠٠٠ =
٠٠٠ر٣٤٠ر٤ متر مكعب فى اليوم =

٥١ متر مكعب فى الثانية

ويتطلب لتلك الكمية نفقات هائلة ، حتى تستطيع قناة الاسماعيلية توفير ذلك ·

هذا مع اننا نحسب حساب التسرب على الضفتين · ويمكن ان يصبح ذلك على مر السنين هاما جدا ، ولذلك يصبح لازما للحصول على الكمية الضرورية من زيادة مخزون المياه وفى مثل هذه المساحة الواسعة ، تصبح حركة الماء عنيفة على الضفاف ، ولابد من تغذيتها بالحجارة ·

واخيرا ، تأتى نقطة هامة جدا ، فيما اذا كانت هذه المياه المخزونة ستبقى نقية ، او فاسدة ، أو حتى تصيبها الملوحة ، نظرا لملوحة الارض التى ستقام فيها الخزانات • وهذه المشكلة يمكن ان تحل بالطبع بالتجربة• وفى اعتقادى الخاص أن هذا الخطر حقيقى . ويمكن أن اذكر أن شركة رى البحيرة قامت بتجربة فى البرارى منذ بضعة أعوام . ثم اضطرت الى التخلى عن المشروع بعد اعوام نظرا لضحالة الخزانات ويبدو مما بينا ، آنفا ، انه بدون الرى الصيفى ، فان المشروع لن ينجح •

ونفترض اذن ، ان الخزانات لن تنجح فما الذى يحدث ؟

أن شركة الاصلاح بلا شك ستبذل كل جهد لارغام الحكومة المصرية على مدها بالمياه الصيفية من القناة • ولا يمكن الاصرار بقوة على أن هذا سيكون مستحيلا ، حتى لو تضاعفت كمية المخزون وراء خزان اسوان • وعلى الرغم من ذلك المثل ، فاننى مقتنع أن الشركة (فى حالة فشل خزاناتها) ستدعو الحكومة المصرية للمساعدة • وستكون الاخيرة فى موقف ، أما أن تشهد خراب مشروع هام ، أو أن تعطى المياه على حساب الارض فى مصر ذاتها . وانطباعى الخاص ، وهو مستخلص من تجربة طويلة ، أن مثل هذه الحالات ، رغم أنها حالات أصغر ، يصحبها ضغط شديد ، وسترغم الحكومة على الرضوخ للطلبات • ومن اجل هذا فاننى لا اوصى بالمشروع •

وانتقل الآن الى شق آخر من المشروع ، وهو الانفاق المقترحة تحت قناة السويس • على الرغم من انها لن تؤثر مباشرة على نظام الرى ، يبدو لى أن ثمة مشاكل ضخمة تتعلق بتنفيذ الاعمال المقترحة •

ويبين مستر فيرشويل ان تمرير ٥١ متر مكعب فى الثانية خلال هذا النفق ، يتطلب على الاقل ثمانية انابيب (قطر كل منها ٢ متر) ويقترح مستر ستفنس ان هذه الانابيب • تعوم . وأن تخفض فى انفاق تشق من اجلها فى جسم القناة • فكم من الوقت يستغرق مثل هذا العمل ، وكيف تسير اعمال القناة خلال هذه العمليات ؟

وحتى لو سار كل شىء على ما يرام الا أن هذا يثير صعوبات شديدة ودقيقة • ولنا تجارب لمثل هذه الاعمال فى مصر ، وقد انشأنا أنفاقا تحت عديد من القنوات الكبرى ، ولكن لم يكن يوجد مرور بها (أو

كان يمكن وقفه بسهولة) · وفى مثل هذه الحالة كان العمل صعبا وطويلا ولست اعتقد بسهولة ان شركة قناة السويس ستسمح بمثل هذه العملية· فاذا ارتفعت ، فالبديل الاخر هو تحويل القناة ، او شق نفق تحت جسم القناة ، توضع فيها الانابيب · وأى من هذه البدائل تتطلب عملا ضخما · وسيكون أيضا صعبا جدا ويتطلب نفقات هائلة ·

واظن فى مثل هذه الظروف أنه سيتجاوز تماما مبلغ الـ ٣٠٠,٠٠٠ جنيـه ·

ومع افتراض ان المال لن يكون عائقا ، فسوف نبقى المصاعب لتوفير المياه الصيفية . ولهذا فاننى مقتنع ان هذه المشكلة حقيقة ، على الرغم من ان اهداف المشروع محمودة ، فاننى مضطر عى الرغم منى الى معارضته ، لصالح الرى المصرى ·

وانى لمقتنع انه فى حالة فشل الخزانات ، وهو على الاقل محتمل (وفى اعتقادى انه محتمل جدا) ، فان الحكومة المصرية سوف تكون أدبيا مضطره الى مساعدة الشركة على حساب مـلاك الاراضى المصريين ، ايا كانت الاتفاقات المعقودة الآن ، ومهما كانت الاحتياطات التى قد توضع ضد هذا الاحتمال ·

ويليام · أ · جارستن

وكيل نظارة الاشغال العمومية

٥ مايو ١٩٠٣

وثائق وخرائط

نص مشروع الاتفاقيـــة التى قدمها تيودور هرتزل الى الحكومة المصرية لحصـــول الصـــهاينة على امتيـــاز التوطن فى ســـيناء ، مايو ١٩٠٣ .

BETWEEN

. **THE EGYPTIAN GOVERNMENT** on the one side, and on the other **DR. THEODOR HERZL**, acting in the name of a Society to be formed, the following has been agreed:

1. The Egyptian Government grants Dr. Herzl or the Company to be formed by him the right to occupy and to colonize the territory situated to the east of the Suez Maritime Canal and comprising about . . . square kilometres and bordered: on the north by the Mediterranean, on the east by the uncontested Ottoman frontier, on the south by a line corresponding to the 29th degree northern latitude.

2. The concession is granted for a term of 99 years; however, the government can pronounce its forfeiture (following six months notice) any time in case of non-observance of the conditions stated below.

3. The Company will have the right to utilize the grant territory, as a thing belonging to it, except with respect to the rights of certain parties, such as mining and the like, obtained from the Egyptian Government prior to the present date.

4. The colonists introduced by the Company into the grant territory will have to be local subjects. Each colonist who is not an Ottoman subject will have to declare expressly in writing that he accepts the exclusive competence of the indigenous administrative and judiciary authorities. This declaration will be accompanied by a certificate issued by the authorities of his country of origin attesting that it is lawful for him to acquire Ottoman nationality and that in any case they will never claim him as a subject or a protected person.

5. The grant lands as well as the colonists will remain subject in every respect to the laws and regulations which govern the territory, as well as to the indigenous authorities, an exception being made for the questions of personal status which will be under the jurisdiction of the religious authorities to be set up by the colonists under the same conditions which obtain among the other non-Muslim communities established in Egypt. These religious authorities will have previously to be recognized by the Government.

6. The grant territory being completely uncultivated, is free of any impost for a period of 5 years. Thereafter, the Colony will pay as an annual rent, replacing all other imposts or taxes on the territory or the colonists, a sum equal to one twentieth of the net revenue of the Colony.

7. The Company is authorized to construct harbors in the grant territory, and to open all lines or means of communication, such as roads, railroads, telegraph and telephone lines, etc. and to engage in all enterprises of any description.

8. The Company will be allowed to receive harbor and light-house dues, but the entry into any port it will construct will be absolutely free of dues to the vessels of the Egyptian Government.

9. In order to establish the revenues mentioned in art. 6, which will form the basis for the receipt of an income by the Government, the Company will keep regular books which will be subject to the control of the Egyptian Government. Any difference relative to the amount of revenues will be brought before a commission of three members, of whom one will be nominated by the Egyptian Government, the other by the Company, and the President by the British Government.

10. The Government, in the choice and designation of judges, functionaries and employes, will consider and take into account as far as possible the wishes and interests of the colonists.

The conditions of development of the colonization permitting, the Government will take into consideration all demand for the establishment of municipalities, as long as it does not present a right to infringe on the above principles.

11. For the duration of the present concession, the Government will not accord any other concession in the grant territory.

12. Upon the expiration of the present concession, the Company will have the right to renew it for an equal period by paying annual dues which will be fixed at the average of the last 15 years.

13. The Government will not accord for 5 years from now any concession relative to that part of the Sinai Peninsula which is not comprised in the present contract. During this period the Company may obtain from the government the concession for the remainder of the Peninsula on the basis of the present agreement.

14. The question of the eventual supply of water from the Nile will be the object of a later agreement.

صورة نص تقرير السير ويليام جارستين ، وكيل نظارة الأشغال العمومية، يبين اسباب رفض المشروع الصهيوني ١٥، مايو ١٩٠٣

Sir W. E. Garstin's Note on the Irrigation of the Pelusiac Plain

I have examined this question with the Inspector General of Irrigation Lower Egypt; we are agreed in considering that the project, as presented, is not one that should be approved.

Mr. Stephens considers that a discharge of 12 meters cube per second, (at Ismailia) during five months of the year, would be sufficient. With this, he proposes to irrigate flood crops but the maturing of the winter crop and the irrigation of the summer crop would be effected by the aid of water stored in artificial reservoirs, constructed on the Pelusiac Plain.

Mr. Verschoyle, Inspector General of irrigation for Lower Egypt, points out that the proposed discharge of 12 meters cube, is absolutely insufficient for the purpose required. The area proposed for irrigation is 60,000 Feddans. The amount of water required to irrigate this area, during flood, (applying our Egyptian formula) would be 30 cubic meters per Feddan; we then get 60,000 × 30 = 1,800,000 metres cube of water. This amount is independent of the water to be stored for use in winter and summer

Adding to this the water required for flood irrigation as previously given, we get:

2,540,000 + 1,800,000 = *4,340,000 M³* per diem = *51 metres cube* per second.

To render the Ismailia Canal capable of passing such an extra discharge would require a very considerable expenditure.

In the foregoing calculations, no allowance has been made for percolation throughout the banks. This at any rate for many years, is likely to be very considerable, and in order to obtain the necessary quantity of water, a still further addition should be made to the storage area. Again in such a large surface, the wave action on the bank would be severe, and they would require to be revetted with stone.

Lastly, there comes in the very important question of whether the water thus stored would remain fresh, or become brackish, or even salt, owing to the salts contained in the soil in which the reservoirs were made. This of course could only be solved by experience. My own opinion is that the danger is a very real one. I may mention that the Behera Irrigation Co. made an experiment in the "Birari" some years ago, in connection with shallow storage reservoirs and, after a few years' trial, abandoned them.

It will be seen from the above that I do not consider the scheme, as proposed, to be a good one. I am convinced that without summer irrigation it would never pay.

Supposing then that the storage reservoirs do not succeed what would happen? The reclamation company would undoubtedly use every endeavour to force the Egyptian Government to assist them by summer water from the Canals. It cannot be too strongly insisted upon that this would be impossible, even were the storage capacity of the Assouan Reservoirs more than doubled. In spite of this instance, I feel convinced, that the company would (in the event of their storage reservoir failing) call upon the Government for assistance. The latter would be in the position of either having to see a large and important scheme wrecked, or giving water to the detriment of the land in Egypt proper. My own impression, which is derived from a long experience of similar, although smaller, cases in Egypt, is, that the pressure would be too great and that the Government would have its hands forced and be eventually obliged to yield to the demands made. For this reason I cannot recommend the present scheme.

Although experience in Egypt shows, that some fifty per cent of the gross area is annually cultivated with Sefi crops, I will for the purpose of calculation, allow only 40 per cent in the present instance, in other words, that 24,000 Feddans will be cultivated in summer. The water required for the irrigation of this area would then be:

122 days × 24,000 Feddans × 30 metres cube = *87,800,000 metres cube of water.*

The supply for winter irrigation, i.e. from January to March, after the canal supply has ceased, is arrived at as follows:

Deducting the Sefi area from the gross area we get:

60,000 — 24,000 = 36,000 Feddans, under winter irrigation, and allowing 25 metres cube of water per Feddan, the water required would then be 36,000 Feddans × 90 days × 25 metres cube = *81,000,000 metres cube of water.*

The total water to be stored would be as follows:

For summer crops = 87,800,000 metres cube
" winter " = 81,000,000 " "
168,800,000
or say 169,000,000 of metres cube.

We now come to the question of evaporation on these shallow reservoirs.

Accepting Mr. Stephens' daily rate of 0.008 metres we get (for seven months of the year = 210 days) 210 × 0.008 metres = a total depth of *1.68 metres.* Allowing that the reservoir has a depth of water equal to three metres, and it could hardly exceed this; we get 3.0 — 1.68 = 1.32 metres of depth available for irrigation.

The area of reservoir required = $\frac{169,000,000}{1.32}$ = 127,000,000 square metres.

I may point out that this represents an area covered by the reservoirs, amounting to 30,000 Feddans, or *half the area to be cultivated.*

The amount of water evaporated would be 127,000,000 × 1.68 = *213,000,000 metres cube.*

The total cube or water to be stored thus becomes 169,000,000 + 213,000,000 metres cube = *382,000,000 metres cube.*

The discharge in the Canal (to provide this five months) would then be $\frac{382,000,000}{150}$ = 2,540,000 metres cube per diem.

I now turn to another portion of the project, viz. the proposed syphons under the Suez Canal. Although these would not directly affect the Irrigation Service, it seems to me that there are grave difficulties connected with the execution of the proposed works.

Mr. Verschoyle points out, that to pass 51 metres cube per second through such a syphon, at least eight pipes (of 2 metres diameter each) would be required even allowing a velocity of 2 metres per second through them. Such pipes would as Mr. Stephens proposes, of course, be floated into position and lowered into trenches dredged for them in the bed of the canal. How long would such a work take to do and how would the traffic of the canal be carried on during the operation? Even if all went well it would probably necessitate at least eight days' difficult and delicate work. We had considerable experience of such works in Egypt, having put down several similar syphons under our large canals, where no traffic (or only such as can easily be stopped) exists. In each case the work has been difficult and a long one. I can hardly believe that the Suez Canal Company would ever allow such an operation, (which would certainly temporarily block their traffic) to be carried out. Should it refuse, the only other alternative would be to make a diversion of the Canal; or to tunnel under the bed and thus lay the pipes. Either of these alternatives would entail works of very considerable magnitude. They would, moreover, be works of great difficulty, and involving a very large expenditure of money.

I think under the circumstances the estimate of £300,000 would be very largely exceeded.

Supposing money to be no object, there still remains the difficulty of supplying Sefi water. I am so convinced that this difficulty is a real one that, in spite of the laudable objects of the scheme, I am most reluctantly driven to oppose it in the interests of Egyptian irrigation.

I feel convinced that in the case of failure of the storage reservoir, a failure which is at least possible (and it is in my opinion highly probable) the Egyptian Government would feel itself morally bound to assist the Company, at the expense of the Egyptian Land owners, whatever may be the agreements at present entered into, and however stringent the clauses made against such a course.

(S) W. E. Garstin
Under Secretary of State
for Public Works
May 5th, 1903.

صورة خطاب هرتزل الى وزير خارجية
بريطانيا يرد فيه على تقرير السير ويليام
جارستين برفض المشروع على اسس
فنية ، ويطلب تدخل الحكومة البريطانية
لمراجعةقرار اللورد كرومر والحكومةالمصرية

My Lord,

I have had handed to me by Colonel Goldsmid who has been representing me in Egypt since the return of the Commission of enquiry in the Sinai Peninsula, a letter from H. E. Boutros Pasha and a memorandum from Sir William Garstin, copies of which I enclose. I doubt not Your Lordship has received copies of these documents from Lord Cromer.

Your Lordship will observe that the Egyptian Government bases its refusal to grant any concession in the Peninsula, upon the report of Sir William Garstin as to the difficulty of supplying Irrigation to the Pelusiac Plain. As to this I have the honour to transmit to Your Lordship a letter I have received from Mr. G. H. Stephens, C. B., who was a member of the Commission of enquiry and was specially charged with irrigation questions. From Mr. Stephens' observations it would appear quite clear that the conclusions to which the Egyptian irrigation authorities have arrived are at least open to question.

Assuming however that so far as the Pelusiac Plain is concerned, the Irrigation Authorities are correct, then I respectfully submit that there still remain large portions of the Territory examined by the Commission of enquiry which, as is shown in a letter received by me from Mr. L. Kessler who had charge of the Commission, and which I enclose for Your Lordship's perusal, are still capable of being utilised for the purposes of a Jewish Settlement.

As I have before pointed out to Your Lordship, even before the Commission started upon its enquiry in the Sinai Peninsula we were aware that the territory was at present by no means inviting as a colonising centre. But we are willing to make it so by the expenditure of large sums of money and by the labour of intelligent and willing immigrants. Hence it seems to me that in view of the opinions expressed by Messrs. Kessler and Stephens after seeing the letter from H. E. Boutros Pasha and the memorandum from Sir William Garstin, the Egyptian Government has denounced the scheme upon altogether insufficient evidence.

I am, I need scarcely say, perfectly willing in this matter to leave myself in Your Lordship's good hands, and to accept Your advice as to what we should do under the circumstances. But Your Lordship will not be unmindful of the object we have in view in obtaining a concession from the Egyptian Government, now that the urgency of the matter has grown even since I had the honour of first seeing Your Lordship upon the subject.

I shall therefore feel deeply obliged if Your Lordship will use Your good offices with the Egyptian Government to reconsider the matter, and if necessary Mr. Kessler and Mr. Stephens shall proceed to Cario to further discuss matters with the authorities there.

I have the honour to remain

Your Lordship's

most humble and obedient servant

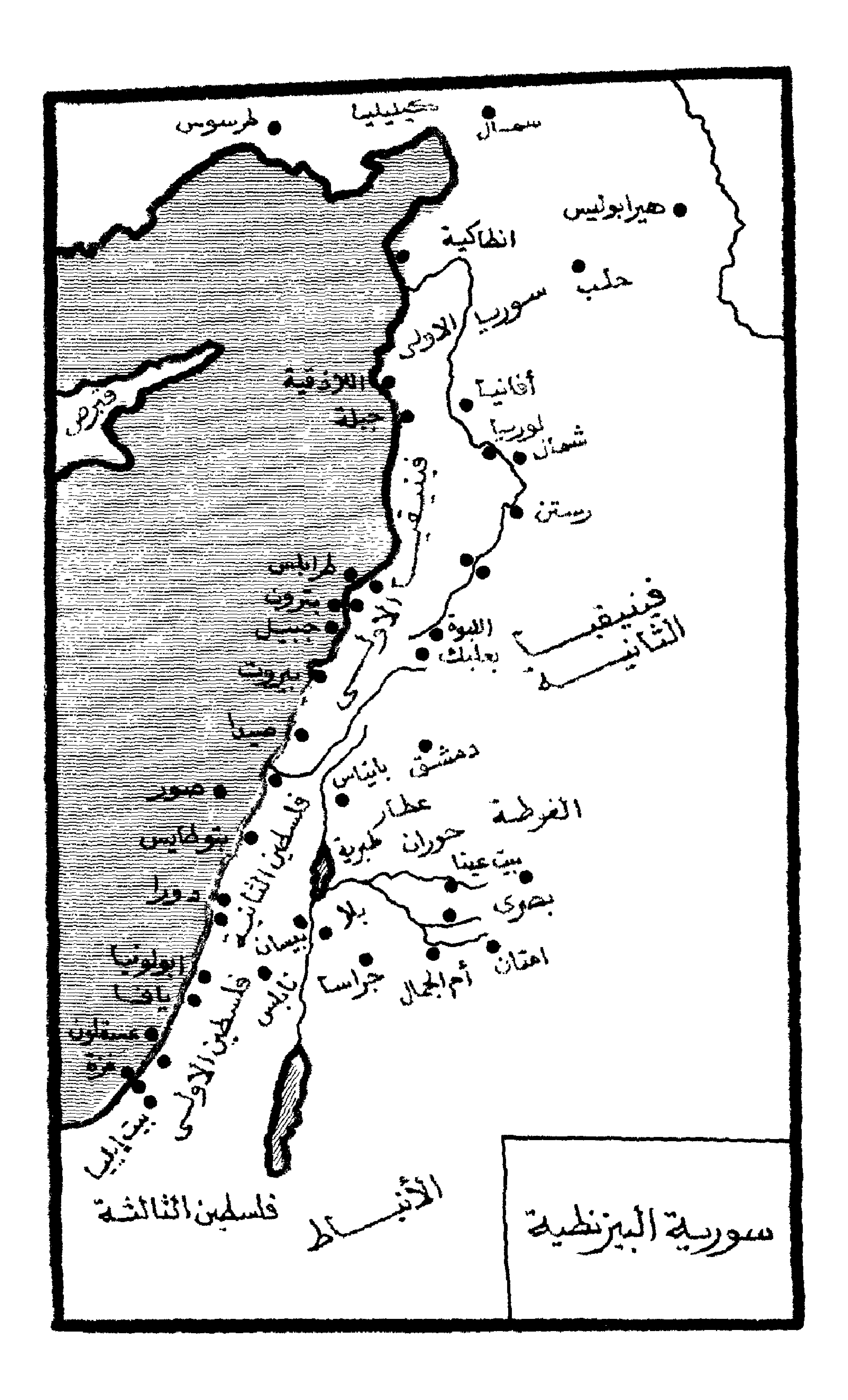
Th. Herzl

المستعمرة الاسرائيلية في القطر المصري

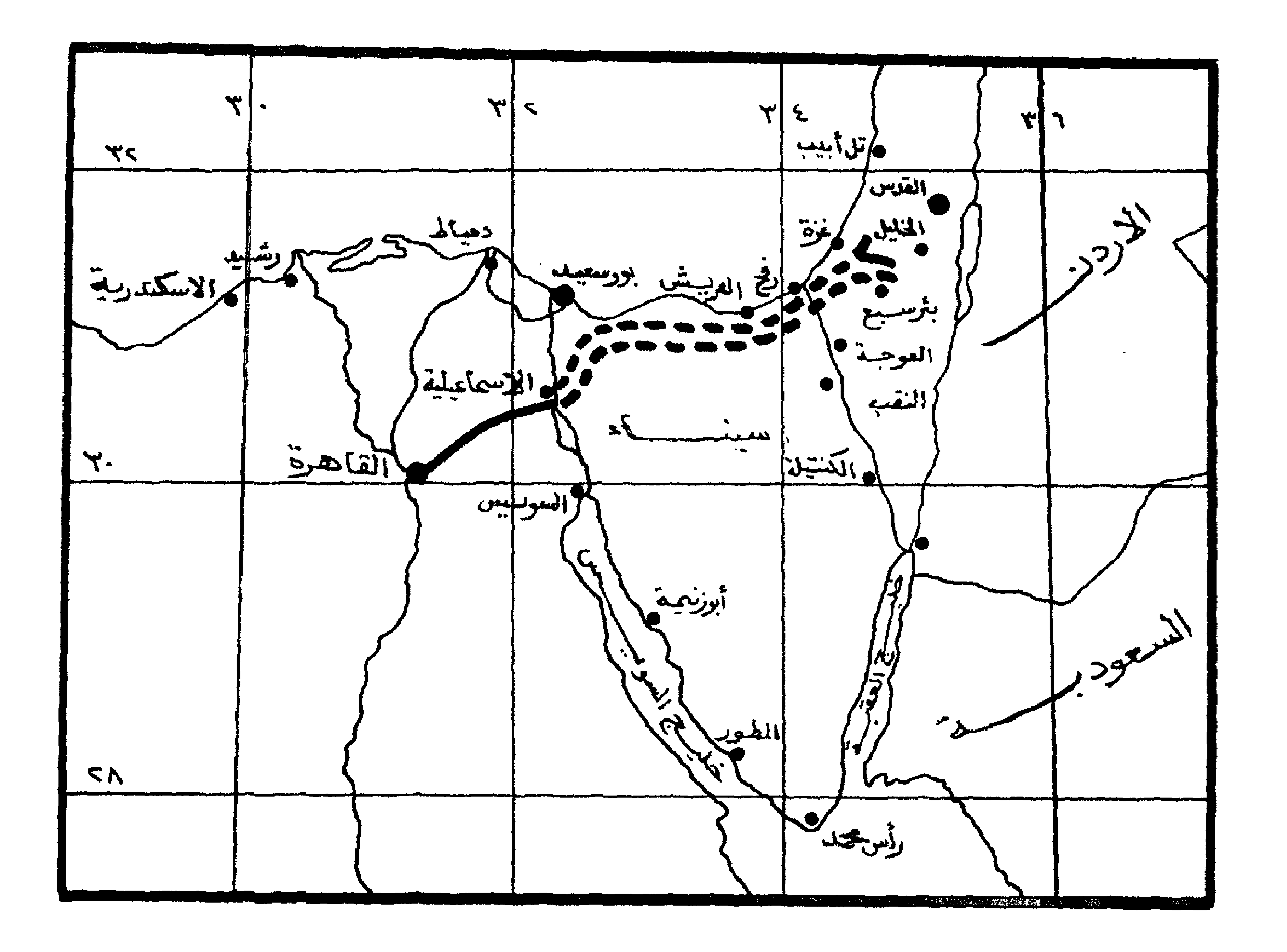
يعرف قرائنا خبر ابتياع الخواجات سوارس والسير ارنست كاسل لسهول كوم امبو بمصر اسوان من الحكومة المصرية على شروط بسطناها في ذلك الحين وخلاصتها ان حضراتهم يأخذون من الحكومة ٣٠ الف فدان فيصلحونها ويدفعون للحكومة ثمن الفدان الواحد ٢٠ قرشاً اي ٦ الاف جنيه من ثمن الارض كلها فاذا نجحوا في اصلاح الثلاثين الالف فدان كان لهم في السنوات العشر الآتية اخذ السهل كله ومساحته نحو من مائة الف فدان بالثمن ذاته وتعهدت لهم الحكومة بتقديم رخص واورات لري تروي تلك الارض كلها وقد اعطتهم اول رخصة لري عشرة الاف فدان ومنحتهم في العام المقبل الرخص لري باقي الثلاثين الف فدان على شرط ان يدفعوا ١٠ قروش من ري كل فدان في السنة الاولى و٢٠ في السنة الثانية و٢٥ قرشاً في السنة الثالثة و ٣٠ قرشاً من ابتداء السنة الرابعة وتعفى الارض في السنوات الاولى من كل ضريبة ثم تضرب عليها ضريبة خفيفة حتى ١٥ سنة او على تقديرها

ومعلوم ان الخواجات سوارس والسير كاسل اصحاب الارض قد عينوا حضرة المهندس الشهير اسمعيل بك سري لوضع الرسوم براتب ١٢٠٠ جنيه في السنة وطلبوا منه ان يتفرد لخدمة هذه الارض فيعطوه ٣ الاف جنيه في السنة فأبى . وقد علمنا من الثقاة الخبيرين ان هذا السهل سيكون بعد اصلاحه مستعمرة صهيونية اذ يزرعونه واصلاحه بالفلاحين الاسرائيليين المصريين كما فعل روتشلد في فلسطين وقد انتدب الآن اصحاب الارض بعض الاسرائيليين للشروع بالاعمال الابتدائية وهكذا تقوم مستعمرة صهيونية في ارض مصرية واتفقوا الصهيونيين من السفر الى شرقي اوغندا وعوامل افريقيا كما ارادت انكلترا

« الأهرام » تنشر ١٩ ديسمبر ١٩٠٣ أخبار أول مستعمرة صهيونية في مصر ، ٦٠ ألف فدان في كوم أمبو .



طرسوس
كيليكيا
سميساط
هيرابوليس
انطاكية
حلب
سوريا الاولى
اللاذقية
أفاميا
جبلة
لوريسا
شيزر
رستن
فينيقيا الأولى
طرابلس
بترون
جبيل
بيروت
اللبوة
بعلبك
فينيقيا الثانية
صيدا
دمشق
بانياس
صور
الغوطة
عطارات
بتولمايس
حوران
طبرية
بيت عينا
دورا
بصرى
بلا
بيسان
فلسطين الثانية
ابولونيا
يافا
جراسا
أم الجمال
عمان
نابلس
عسقلون
غزة
فلسطين الاولى
بيت إيليا
الأنباط
فلسطين الثالثة
سورية البيزنطية



٣٠
٣٢
٣٤
٣٦
٣٢
٣٠
٢٨
تل أبيب
القدس
الخليل
غزة
رفح
العريش
بورسعيد
دمياط
رشيد
الاسكندرية
بئرسبع
العوجة
النقب
الأردن
الإسماعيلية
سيناء
الكنتيلة
القاهرة
السويس
أبوزنيمة
الطور
رأس محمد
السعودية

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ لمحات عن كافكا (مع آخرين) ١٩٥٤ ـ شركة الاعلانات الشرقية

٢ ـ جميلة بوحريد (مع آخرين) ١٩٥٦

٣ ـ بدلا من الخوف ، الاشتراكية والديمقراطية
الوزين بيفان ، ترجمة ومقدمة ، ١٩٥٦ . دار النديم

٤ ـ الدولة فى النظرية والتطبيق ، هارولد لاسكى ، ترجمة ، ١٩٥٨ ،
دار النديم

دار النديم ـ طبعة ثانيه مع مقدمة ـ دار الطليعة ـ بيروت ، ١٩٦٦
د ـ مذاهب غريبة ـ كتب للجميع ١٩٥٨

٦ ـ الغاضبون ـ كتاب اليوم ١٩٦٩ (طبعة ثانية ، بغداد)

٧ ـ العالم من ثقب الباب ـ كتاب اليوم ١٩٦٩

٨ ـ ممنوع الهمس الكتاب الذهبى
كتاب الهلال ، طبعة ثانية

٩ ـ العالم من ثقب الباب ، وممنوع الهمس ، دار المؤسسة العربيـــة للدراسات ، بيروت ١٩٧٢

١٠ ـ الموسوعة الاشتراكية ، اشراف وتحرير كامل زهيرى (مع آخرين) دار الهلال ١٩٦٨ و ١٩٧٠

١١ ـ الموسوعة السياسية ، اشراف كامل زهيرى وعبد الوهاب الكيالى ، بيروت ١٩٧٣ ، ١٩٧٤

١٢ ـ منازعات فى الاشتراكية والديمقراطية ـ الهيئة العامة للكتاب ، بيروت ١٩٧٤

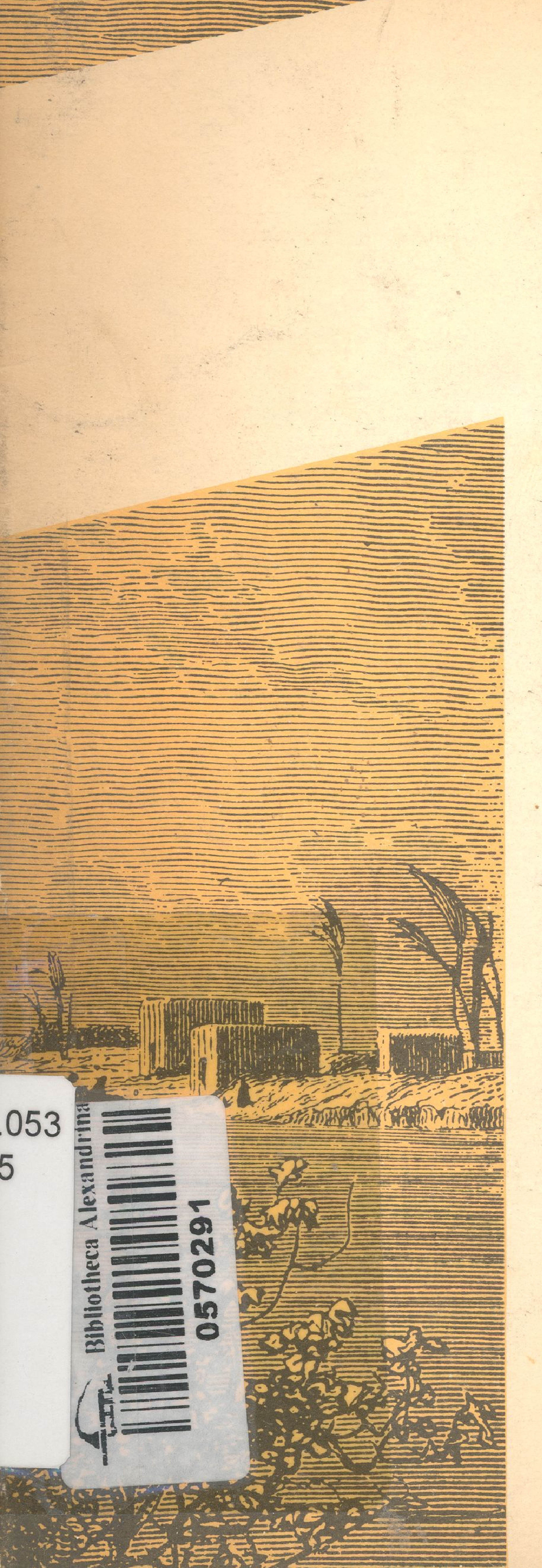
١٣ ـ الرد على مزاعم بيجن ، دار الموقف العربى ، ١٩٧٨
حرية التعبير والصحافة وجرائم النشر فى مصر

فهرس

صفحة

رقم الايداع ١٦٧٣/٨٠
الترقيم الدولى ٤ ـ ١٠ ـ ٧٣١٥ ـ ٩٧٧

مطبعة
دار أسامة للطبع والنشر
عطفة شكات ـ درب يعقوب بالقاهرة



تصميم الغلاف : اللباد
(المركز الجرافيكى العربى بالقاهرة)

« النيل فى خطر »

ليس كتابا سياسيا أو أدبيا يكتبه كامل زهيرى . انه صرخة وطنية .

النيل فى خطر ، لان اسرائيل تريد تحويل مياه النيل عبر سيناء الى صحراء النقب .

انه الحلم الصهيونى القديم (١٩٠٣) الذى أصبح الآن مشروعا جديدا (١٩٨٠). وفى الكتاب تفاصيل المشروعين القديم والجديد .

« النيل فى خطر » فى كل صفحة حقيقة أو وثيقة . تكشف نص مشروع اتفاقية توطين اليهود فى سيناء عام ١٩٠٣ لمدة ٩٩ عاما . ونص تقرير البعثة الصهيونية التى زارت سيناء أيام الاحتلال البريطانى واقترحت تحويل مياه النيل تحت قناة السويس . وتكشف مشروع توطين اليهود فى كوم إمبو . وحقيقة الاتصالات السرية بين المليونير الصهيونى روتشيلد وجوزيف تشمبرلين وتيودور هرتزل وبين اللورد كرومر وبطرس باشا غالى .

« النيل فى خطر » يكشف صفحات من تاريخ مصر . نزعت عنوة من مؤلفات كرومر وملنر وستورز وراسل . وقد أصابت فجوة غريبة كل مؤلفات المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ، ومذكرات محمد فريد ، والسلطان عبد الحميد ، والخديو عباس حلمى . فلماذا كان هذا الصمت الغريب عن مشروعات الصهيونية . ولماذا سكتت الاقلام الوطنية ، أو أسكتت ، وكيف أخفيت الحقائق والوثائق حتى الآن.

كتاب « النيل فى خطر » يكشف لاول مرة — وبالوثائق — كل مؤامرات الحركة الصهيونية فى مصر . ويربط بين أطماع الصهيونية عام ١٩٠٣ وعام ١٩٨٠ . ويكشف تفاصيل المشروع الصهيونى الجديد والاخير لتحويل مياه النيل الى النقب .